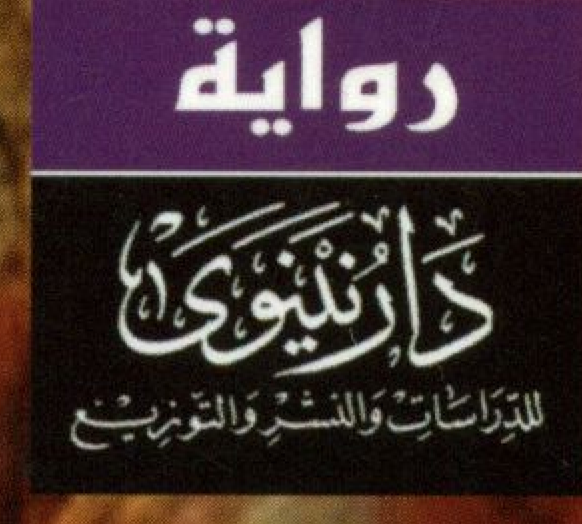
مكسيم غوركي

حادث فوق العادة

ترجمة: عبد المعين الملوحي





حــادث فــوق العــادة

عنوان الكتـــاب: حادث فوق العادة
اســـم المؤلـــف: مكسيم غوركي
المـوضـــــــوع: قصص
تـــرجمـــــــــة: عبد المعين الملوحي
عدد الصفحات: 128 ص
القيـــــــــاس: 14.5 * 21.5 سم
الطبعـــة الأولى: 1000 / 2016 م - 1437 هـ
ISBN:



سورية - دمشق - ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتـــف: 2326985 11 963+
E-mail: info@ninawa.org - ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

مكسيم غوركي

حادث فوق العادة

قصص

ترجمة

عبد المعين الملوحي

الإهداء

إلى الذين ينظرون إلى ما في الحياة من أحداث عادية
فيها وحشة وعبوديّة
فيسعون إلى خلق أُحداث فوق العادة
فيها إنسانيّة وحريّة
أُهدي هذا الكتاب

حمص 1954/5/1
عبد المعين الملوحي

مُقدّمة

ليست الترجمة تجارة، وما كان ينبغي لها أن تكون كذلك.

إنها قبل كل شيء أن يجد المترجم فيما يقرأ نصيباً من الحق والخير والجمال، وأن يحبَّ هذا المؤلّف ويحترمه، لأنه استطاع أن ينير عقله بقبسٍ من الحق، وأن يدفع يده إلى القيام بعمل من أعمال الخير، وأن يغمر قلبه بفيض من الجمال، ثمَّ أن يجد في نفسه رغبةً جامحةً في أن يشارِكَهُ إخوانَهُ وأبناء وطنه في التَّمتع بما قرأ، فينقلَ إلى لغتهم هذا الكتاب.

وأمّا أن نترجم لأنَّ في الترجمة ربحاً، ولأنَّ لهذا النوع أو ذاك من الكتب رواجاً في السّوق فتلك جريمة شنعاء يرتكبها المرتزقة فيهينون المُثُلَ العليا التي دافع عنها المؤلّفون من فلاسفةٍ وعلماءٍ وأدباءٍ وشعراء، هذه المُثُلَ التي اضطُهِدوا في سبيلها فَزُجُّوا في غيابات السُّجون، ونُفوا إلى أقاصي الأرض، وعُلّقوا على حبال المشانق.

وليست الترجمة عبثاً ولهواً، وما كان ينبغي لها أن تكون كذلك.

إنّها في الدَّرجة الثَّانية فنٌّ له قواعِدَهُ وأصولَهُ، فهي تتطلب من المترجم فهماً كاملاً للنَّص المُتَرجَم، وحِرْصاً تاماً على أداء ما فيه، وإخلاصاً شديداً في أن ينقل إلى لغته نقلاً دقيقاً صحيحاً كلَّ ما أودع فيه المؤلِّف من أفكارٍ وآراءٍ وعواطف.

وليس يجوز للمترجم أن ينتزع من الكتاب ما يريده هـو ممسوخاً لا ما يريده الكاتب كاملاً، وليس يجـوز لـه أن يجعـل مـثلاً مـن الرّوايـة ذات اللّحم والدّم والحياة هيكلاً عظمياً تتراكم فيه الحوادث عارية ليس يكسوها لحم، وليس يجري فيها دم، وليس تنبض فيها حياة.

وليس يجوز له أن يتساهل فيما لم يفهمه، وأن يحوّر فيما فهمـه ولم ينـل رضاه، وإنما ترجمة الكتاب أمانة في عنق المـترجم يجـب أن يُؤدّيهـا للمؤلّـف كاملةً غير منقوصةً فإن لم يؤدّها حقّ الأداء كان لها خائناً.

وليس يجوز للمترجم أن يجعل التّرجمة أقلّ من الأصـل صـحة لغـة، وسلامة تركيب، وصفاء أسلوب، ولاسيما إذا كان الكتاب أدبيّاً، فهـو آنئـذ يحتاج أسلوباً محكماً يساوي أو على القليل يقـارب، إن كانـت المساواة غـير ممكنة، وإنها لكذلك، الأسلوب الذي أدّى بـه المؤلّـف أفكـاره وعواطفـه، فالأغلاط اللغوية تشوّه الأفكار، والرّكاكة تقتلها وتمتصّ كلّ مـا فيهـا مـن نسغ الحياة، فيبدو الكتاب جِيْفَةً انتُزِعَـتْ منهـا الـروح، أو طيفـاً لـيس لـه جسد، وكلاهما لا يوحي إلى النّفس أنه حي.

تلك كلمة أملاها عليَّ إحساسيَ العميـق بـواجبي، وحبّـي الجـارف للكاتب العالمي العظيم مكسيم غوركي، فقد كثرت الكتب التي تُرجمت لـه ولكنّي وجدت في كثير منها ويا للأسف رغبة في التجارة بهذا الإنسان وهو لعمري إنسان طالما حارب هـذه التّجـارة القـذرة، ثـم لم يمـت إلّا بعـد أن ألغاها إلغاءً، وانتصر عليها انتصاراً، فمـن الجريمـة أن نجعلـه نحـن مـادة لتجارتنا.

وأنا أهيب بكلّ إنسان شريف يحبُّ غـوركي، ويخلـص لمُثُلِهِ العليـا

التي أخلص لها، ويريد أن ينصرها كما نصرها، ألّا ينشر وألّا يعين على نشر ما يشوّه هذا الكاتب العظيم ويسيء إليه.

لقد عاهدت نفسي على أن أنشر مؤلفات مكسيم غوركي كاملة، وأنا ماضٍ في تنفيذ هذا العهد، وهذا الكتاب الذي بين أيدي القرّاء ثالثُ كتبٍ ثلاثةٍ نشرتها له، أما الكتاب الأوّل فهو «ذكريات حياتي الأدبية» وقد طبعته في مصر، وأما الكتاب الثاني فهو: «المتشردون» وقد طبعته في حمص، وأعيد عهدي بنشر مؤلفاته الكاملة كما ترجمتها، ما نشره غيري منها وما لم ينشره، ولقد سعيت وأرجو أن يرى الناس جميعاً ما سعيت إليه من أن تكون الترجمة أمينة صادقة أولاً وأن تكون عربية مبينة سليمة ثانياً، ولئن أسفت على شيءٍ فأسفي أنّي لا أنقل مؤلفات غوركي عن لغة غوركي وإنما أنقلها عن اللغة الفرنسية.

ولنحلّل الآن، بعد هذه المقدمة، التي أعتقد أنها واجب مؤكد، هذا الكتاب الذي بين أيدينا تحليلاً موجزاً.

طالما تحكّمتّ بالإنسان حوادث الحياة اليوميّة العاديّة حتى كادت تحوّله إلى آلة أو إلى حيوان، ولكنها على ما فيها من مآسٍ وكوارثَ لم تقضِ ولا يمكن أن تقضي على العناصر الإنسانيّة فيه:

النَّهر يجري في مجراه هادئاً ساكناً، والحياة يريد لها أعداؤها وأعداؤنا أن تمشي في مثل مجرى ذلك النَّهر هدوءاً وسكوناً، ولكنَّ النَّهر لا يلبث أن يفيض ويثور، ولكنَّ الحياة لا تلبث أن تنتفض وتتسع، وإذا بالنَّهر يحمل إلى المروج من حوله الخصب والخضرة ويحمل إليها مع الخصب والخضرة شيئاً من الدَّمار والخراب، وإذا بالإنسانيَّة وهي أوسع من النَّهر مجرىً، وأبعد

عمقاً، تثور على «رتابة» الحياة وعاديّتها تلك الرّتابة القاتلة، وهذه العاديّة المجرمة، وإذا بها تنبض بعناصر التّجدُّد والانطلاق، هذا التّجدُّد المنعش وهذا الانطلاق الخالد، وإذا بها تقلب ما في حياتها من عاديّة ونمطيّة إلى خوارق وحوادث فوق العادة، وإذا بأولئك الذين اضطُهِدوا وعُذِّبوا يصبحون وقد نَفَضوا عن كواهلهم القويّة الفتيّة أثقال العبوديّة وكسروا عن أعناقهم الدّامية قيود الذُّل والظُّلم بأيديهم الحديديّة، لتنطلق إلى الإبداع والإنشاء:

«ها هي ذي الرّيح تمزّق حجب الغيوم الكثيفة، وها هو ذا شعاع الشّمس يسطع في زرقة السّماء، وها هي ذي هذه البهائم المراح تستقبلها بصرخة واحدة وهي تفتل شواربها فوق أشداقها الطّيّبة. أيُّ إنسانٍ يستطيع أن يمنع نفسه من ضم هذه الحيوانات، ذوات القائمتين، ومن تقبيلها؟ إنها حيوانات ذكيّة فيما تعمل، ماهرة فيما تصنع، وإنها لتغرق في العمل حتى تنسى نفسها. وهل يستطيع شيءٌ في الوجود أن يقاوم هذه الطّاقة من العمل الذي بدأ، وهذه الفورة من القوّة التي تفتّحت راضية ومطمئنة؟ إنها قادرة على خلق المعجزات، قادرة على أن تَهِبَ، في ليلة واحدة، للأرض كلّها ماء يملؤها قصوراً رائعة ومدناً زاهية زاهرة تخجل منها القصور والمدن التي ورد ذكرها في الأساطير»[1].

ومكسيم غوركي في كتابه هذا يقصّ علينا أنباء تلك الانطلاقة إلى المجد والحريّة، وأخبار تلك الثّورة التي اشتعلت نيرانها في بلاده فنقلتها من

---

1 - ذكريات حياتي الأدبية، غوركي، دار القلم، 1954.

جحيم الذُّل والجهل والفقر والمرض إلى نعيم العزة والعلم والثَّروة والعافية.

وتتألف هذه المجموعة من حادثتين خارقتين، فوق العادة:

1- حادث فوق العادة.

2- حكاية.

أمّا القصة الأولى وعنوانها كما رأيت عنوان الكتاب نفسه فَتُمَثِّلُ لنا في شخصية رجل ساذج ولكنه ذكي تلك القوى التي تنازعت الشَّعب في روسيا خلال عشرينَ عاماً قبل الثَّورة تقريباً، وأراد بعضها أن يحيد به عن الصِّراط المستقيم، ولكنَّه في كلِّ مرّة كان يفهم ويمشي في طريقه حتى بلغ آخر مراحلها.

ويصوّر غوركي جانباً من ذلك الصِّراع الدَّمويّ الجبّار الذي نشب خلال الثَّورة وانتهى إلى نصرها نصراً مؤزراً.

وفي القصة الثّانية يبرز لنا شخصيتين:

1- شخصيَّة شاب يحتقر ثروة عمِّه الضَّخمة التي سوف يرثها حتماً ليكون قائداً من قوّاد الثّورة على لصوص الثّروة، وليُحاربَ بيده، وليجعل من دار عمِّه حِصْناً يحتمي وراءه في الدِّفاع عن حقِّه في التَّفكير الحرِّ لا في إرث مال عمِّه.

2- وشخصيَّة كهل لم يتزوج وله ثروة كبيرة، وهو مريض مهدد بالموت، ولكنه يأبى أن يموت، ويأبى أن يقبل وراثة ابن أخيه له، ويأبى أن يصدِّق أن ابن أخيه يحتقر ثروته ولا يبالي بها، وهو قد تنبسط نفسه ونرى فيه ظلاً من ظلال الإنسانيَّة لا يلبث أن

يتقلّص عندما تُهَدِّدُ الثَّورة ثروته التي سوف يتركها حتماً بين ساعة وأخرىٰ ليصبح وحشياً ضارياً يدلّ الجند علىٰ مكان ابن أخيه ليقتلوه.

وسنرىٰ في القصة نتائج هذا الصِّراع.

والقصتين بعد ذلك تعطينا جوانب مختلفة من المعجزات، هذه المعجزات الإنسانيَّة الحاضرة التي تذكِّرنا بالمعجزات الإلهية الماضية، هذه المعجزات التي تكتسح العالم اليوم قطراً بعد قطر لتنشر علىٰ هذه الأرض الجميلة العزيزة التي أثخنتها الجراح وغسلتها الدِّماء راية العدل والسَّلام والحرية.

حمص 1953/9/1

عبد المعين الملوحي

حادث فوق العادة

في قصر من تلك القصور، قصور الأمراء الممتدة على ضفاف «النيفا»، وفي غرفة من ذلك القصر مرقّشة، على الطراز «المراكشي» قذرة، متجهمة باردة، جلس يترجح على كرسيه، وقد ارتدى ثوباً رمادياً من ثياب الجنود.

كان قد جاوز الأربعين من عمره، ربعة، صلب العود، وكانت رجله اليسرى عرجاء فهو يمدها مداً، ويضع رجله اليمنى على الأرض في قوة.

وجلس يتحدّث فإذا بلغ المقاطع الحساسة في حديثه ضرب الأرض بعقبه العريض كأنّما هو حصان يضرب الأرض بسنابكه، وتشعثت على رأسه شعرات يابسات، لونها لون لحاء الزيزفون، ونجمت على عارضيه وذقنه هنا وهناك خصلات نحيلة من شعر أصفر ضئيل، وانتصب تحت أنفه المزعج شاربان محفوفان، من يرهما يتذكّر فرشاة أسنان عتيقة مهترئة.

ليس في وجه هذا الرجل ذي الشدق الواسع الذي تملؤه أسنان قوية صلبة ما يلفت النظر، ولكنه وجه مثل تلك الوجوه التي تشبه وجوه السمك، قاتمة، حادة، ذات عيون ليس لها لون معين، تلك الوجوه التي تنتشر في المقاطعات الوسطى من روسيا، وتضيء هذه الوجوه في الغالب عيون صغيرة تتطلع حيناً إلى السماء، وتحدّق حيناً في الأرض، ولا تنظر

إليك حين تحاوِرُها إلا شزراً. وإنّك لتشعر في نظراتها هـذه بشيءٍ لا تحـدده من رياء روحي، ومن سوء ظن بالناس جميعاً أوحاه إلى صاحبها طـول مـا قاسى من خداع الناس له، ومكرهم به. وربما برقت أحياناً في أعماق هـذه العيون حدة باردة تنغمس فجأة في نفس مـن يراهـا كأنّها إبـرة تـنغمس في القماش، فتكشف عن ذكاء وقّاد يواريه صاحبه في مهارة وحذر.

ولقد أيقظت في نفسي هذه اللمعة الحادة في نظرته رغبة «ديـوجين»، هذِه الرغبة التي يتميز بها الأديـب. واسـتطعت أخـيراً أن أنتـزع مـن هـذا الرجل، ذي الأسنان الصلدة، قصة حياته.

إذن فها هو ذا يقصّ القصص غير معجل. ينتزع الكلمات واحـدة بعـد واحدة. ويصمت قليلاً لأفهم أنّه يعرف ما في حديثه من قيمـة. ولأفهـم مـرّةً أخرى أنّه يعرف أنه طالما أدهش من استمع إلى حديثـه قـبلي. ولـربما غـالى في تبجحه هذا، فرنّت الوقاحة في حديثـه لحظـات، واهتـزت شـعرات شـاربيه، وبدت تحتهما شفة تلتوي التواءً مضحكاً، فإذا أصـبح حديثـه مكفهـراً حزينـاً تغضّنت أسارير جبينه، وبرقت عيناه بريقاً رطباً غريباً، واتّـسعت حـدقتاه فـما تدري عند ذلك أهو خائفٌ مذعور أم متعجبٌ مستغرب.

كان لا يزال يثبّت قدمه، ويوالي ترجحه وإنّـه لـترجح سـاء مـا لاءم مقاطع قصته المحكمة، أما يداه القائمتـان فكانتـا تـضربان ركبتيـه ضربـات قلقة، ثمّ تنقلان ما على المنضدة من أوراق والدواة والمرملـة مـن مكـان إلى مكان. ثمّ تلمسان الريشة الخشبيّة. ثمّ لا تكادان تستقران قليلاً، حتى ينظـر إلى ما غيّر من مواضع هذه الأشـياء، وعينـاه مغمـضتان، فيبـدأ عملـه مـن جديد ويغير مواضعها مرّة أخرى، وإذا به بعد ذلك يدفع دفعاً هذه الأشياء

جميعاً في غيظ ظاهر، ويهملها إهمالاً، ويمدّ يده إلى الحائط المرقّش فيقشره بأصابعه، أو يحك ألوانه المذهّبة والحمر والزرق أو يحت جصه ونقوشه العربية المعقّدة.

ولقد خيّل إليّ أنه يضيق ذرعاً بهذه الغرفة الشاذة. فهو يتقصّى نظره من النافذة التي قَطَعَتْها ظلال الشعريّة المقرّنة، دقيقتين أو ثلاث دقائق، صامتاً، يلوي رأسه، ويقيم عنقه، باحثاً عن شيء ما فوق تلك الصفحة العريضة التي يخطها نهر النيفا المقفر. وربما رأيته وهو يحلّ أزراره ثم يعقدها كأنّما يريد أن يخلع ثيابه ليتخلّص من ثِقَلٍ خارجي يرهق جلده وتنوء به عظامه.

أما صوته فكان أجش يأتيك من مكان بعيد كأنّما هو يخرج من أعماق صدره.

قال:

– أقمت في سيبيريا، وأوراق هويّتي منها، ولكنّي ولدت في روسيا، ببلدة سافاتما. وسافاتما هذه في مقاطعة ريازن. ولقد ورثت اسم سافاتما من أبويَّ كليهما اللذين طالما رددا على مسامعي: نحن من أهل سافاتما. وهكذا ظللت حتى بلغت السابعة عشرة من عمري لا ألفظ اسم هذا البلد سافاتما بل ساماتما. وكنت أعتقد أنّه نهر أسود سواداً ليس له مثيل. ولذلك فلم أحدّث عنه أحداً، حتى رفاقي الصغار، ولم أفتخر به أبداً. ولعلّي كنت أستحي من ذكره. وكيف أذكر هذا النهر الأسود وأنهار سيبيريا صافية لامعة!؟ وأخيراً سَمِعَني تاجر آلات زراعية أقول ساماتما فأصلحَ خطئي وقال لي في غلظةٍ وجفاء:

- أيّها الغبي، إنها سافاتما وليس ساماتما. وهي ليست نهراً ولكنّها مدينة، بل هي مقاطعة..

وصدّقته رأساً. وسرّني أنّ سافاتما هذه ليس فيها شيء خارق للعادة.

لست أذكر قريتي، فهي قرية عاديّة، ولاشكّ، ولكنني لا أزال أذكر بلداً آخر يقع على هضبة تطل على نهر، ومن وراء هذا البلد دُيّر في مركز نصف دائرة من الغابات. وهذا البلد، ولا يزال يمثّل في خاطري، ليس بلداً وإنما هو ألعوبة من الألاعيب فيها ألاعيب كثيرة مثلها: بيوتها الصغيرة، وكنيستها القميئة، ومواشيها: كلّها قدّت من الخشب، أمّا أشجارها فطحلب أخضر.

أحببت في طفولتي هذا البلد، وحين هاجرنا إلى سيبيريا، وكنت في العاشرة من عمري، فقدت أمّي وأخي الصغير خلال الهجرة، سقطا من القاطرة فماتا، ولحقهما أبي بعد قليل صدفة: أكل كثيراً من السمك، فمات.

وطوفت في القرى أتسوّل في صحبة عجوز صغير. كان هادئاً رصيناً لم يضرِبْني أبداً. وبقينا رفيقين سنة أو تكاد. وبينما نحن في سوق مدينة صغيرة رآني ترفيم بوييف، وهو فلاح عجوز، فدفع لصاحبي العجوز روبلاً واحداً واتّخذني خادماً.

كان سيّدي الجديد ضخماً شرساً، يجمع بين الشره والتقوى. كان من أولئك الذين يعيشون زوراً وبهتاناً: من أولئك الذين يظنون أنّهم أوصياء عليك، موكّلون بك، وأنّ عليهم أن يؤدوا إلى الله حساباً عن أعمالك أنت، أمّا هم فلا يؤدّون عن أنفسهم حساباً ولا يبالون معصيةً ولا إثماً. ومن أجل ذلك فهم يكتمون أنفاسك ويعدّونها عليك، أمّا هم فيشخرون شخيراً.

كرهته مباشرةً. كرهته وكرهت أهله لأنّهم جميعاً قساة غلاظ الأكباد، جشعون يطمعون في كل شيء... ولقد فهمت منذ طفولتي ما في العمل الذي يجاوز طاقة الإنسان من وحشيةٍ وظلمٍ، ومن مناقضةٍ للعقل والمنطق: كان لهذا الفلاح العجوز عشرة أفراس، وسبع عشرة بقرة، وثور، وغنم، ودواجن. كان له كلّ ما يكفي حاجته ويفيض عن حاجته، ومع ذلك فقد كان يشتغل هو، ويرغم الناس على العمل، كأنّما هم جميعاً مساجين حُكِمَ عليهم بالأشغال الشاقّة المؤبّدة.

كانوا يأكلون في كراهية، فإذا شبعوا واكتظوا أكلوا وهم شباع، فإذا أصبحوا حمر الوجوه من الشراب، قبّ البطون من الطعام، لم يزالوا يأكلون ويقضمون ويتعبون. عمل كثير وطعام كثير: هذا هو سر وجودهم وكنه حياتهم.

فإذا حلّت أيّام الأعياد لبسوا ثيابهم ومَضَوا زرافات إلى الكنيسة وتقع على بعد اثني عشر فرسخاً من بلدنا.

أمّا أسرته فكانت كثيرة العدد: هو ربّ الأسرة وأولاده الثلاثة من زوجه الأولى، واحد منهم جندي، وكنتان، وصهر له زوجه، وكان أخرس سقط من عجلة فَقُطِعَ لسانه، وابنة أصغر مني بسنتين، تدعى «ليوبا»، وهي من زوجته الثانية التي كانت بهيمة حقاً، عينا فرس وقوة رجل. وهنالك عامل روسي يدعى مكسيم، وإنّه لَمُحِبٌّ للنوم عظيم: كان ينام وهو واقف، ونساء عجائز كثيرات كأنّهنّ السعالي أو كأنّهنّ الجرذان.

وعندما بلغت السابعة عشرة من عمري غرز مكسيم المدراة في وركي مخطئاً غير متعمد، ومضت سنة ووركي يؤلمني، ثم جعل ينزّ صديداً

وقيحاً ثمّ جعلت أعرج، وعند ذلك فطن سيرج إلى مشيتي، وقال لأبيه ونحن نتعشى:

- إنّ يعقوب يجرّ رجله جراً، وعلينا أن نعنى بها.

وقال له أبوه:

- ستُشفى رجله دون علاج. وإذا لم تُشْفَ فذلك خير لنا، فسيكون أعرج، وإذاً يعفى من الخدمة العسكريّة.

كذلك انتهى الأمر عندهم، أمّا أنا فقد أزعجني هذا النبأ وآذاني: كنت فتىً قويَّ البنيان، وكنت إذا مررت بالصبايا وأنا أعرج خجلت، وكنّ يسخرن منّي، وعند ذلك قررت أن أغادر منزل بوييف، وفاتحت في أمري «ليوبا» فقالت لي وهي ناصحة مشفقة:

- سافر.. سافر وإلّا فتكون جهداً ورهقاً. ألا تراهم جميعاً قد حُكِمَ عليهم بالهلاك؟

كانت «ليوبا» صبية حزينة سقيمة البدن، حتّى أنّها لم تكن تستطيع أن تَمْخُضَ السمن. وكانت لي صديقة وفيّة: علّمتني القراءة قسراً. وكانوا لا يحبّونها فيسخرون بي وبها ويقولون:

- ما أحسن هذا الخطيب الأعرج!

أمّا هي فلم يخطر لها ذلك كلّه في بال. كانت تساعدني على احتمال أعباء الحياة هكذا في بساطة وسذاجة، وكانت نقية طيبة، تكره توافه الأمور، عيناها كبيرتان مثل عيني أمّها، ولكن فيهما لألاء ونوراً، وكانت ضامرة نحيفة. كانت قلّ أن تضحك، فإذا ابتسمت قليلاً شعرت أني خفيف كالعصفور طروب كالطفل، وكانت كذلك لا تبكي، فإذا ضربوها

انكمشت على ذاتها، وتضاءلت أعضاؤها، وهي ترتجف وتغمض عينيها. كانت أكثر من في الأسرة ذكاءً، ومع ذلك فقد كانوا يعدونها بلهاء. ولكنها كانت قاسية أيضاً: تحبُّ تعذيب صغار الحيوان من كلاب وقطط ويسرّها على الخصوص أن تخنق الفراريج فتمسك بواحد منها وتخنقه بيديها.

سألتها ذات مرّة:

- لِمَ تفعلين هذا؟

فلم تجبني، وهزّت كتفيها. وظنّي أنها كانت تجد في هذا العمل ما تُفرِّج به عن غيظها وحقدها على الناس، وما تنتقم به لنفسها من خبثهم وقسوتهم عليها.

ودّعتها في الربيع وسافرت. وحاول بوييف أن يمنعني، وحجب عني جواز سفري ثمّ سلمنيه وساعدتني في استعادته ليوبا.

طوّفت في الآفاق سنتين دون أن ألقى حادثاً، ولست أجد ما أتحدّث به عن ذلك العهد. عشت في بلدة بارناؤول عند طبيب شفى ساقي وترك لي عرجي، وحدثت نفسي قائلاً:

«سأعيش حتى أبلغ العشرين من عمري وأنا نائم، لا أريد أن أرى حادثاً فوق العادة».

وربما تذكّرت البلد في غمرة من غمرات الضجر وفكّرت:

«هناك يجب أن أعيش».

ولكنّي لم أكن أعرف أين يقوم ذلك البلد، ثم نسيته، ولكنّي لم أنسَ «ليوبا»، لقد أرسلت إليها ذات يوم كتاباً فلم ترد علي.

عشت عند الدكتور «الكسندر سيريلوفتش» هادئ البال، قليل من

العمل، أقطع الحطب، أشعل المدفأة، أساعد الطباخة، أنظّف الأحذية والثياب، أرافقه إلى المرضى.

ولم يكن الدكتور معاقراً للخمر: كأس أو كأسان، من حين إلى حين، طلباً للصحة..

قامرت في حذر، وأحبتني النساء هكذا مجاناً، وأغلقت نفسي فنظر إليّ الناس نظرتهم إلى غبي، وجمعت مالاً.

وفجأة ها أنذا أتدحرج من قمة جبل شاهق، وها هي ذي حوادث فوق العادة فريدة خارقة تعترض طريق حياتي الهادئة الوادعة:

قُتِلَ في جوار منزلنا رجل وامرأة، ولم أبت تلك الليلة في المنزل، فألقي علي القبض، وظهر أن جواز سفري ليس أصولياً، وأن أحرفه فيها تبديل، فقد كتب اسمي فيه «يعقوب جازيكوف» مع أن اسمي الحقيقي «يعقوب زيكوف».

وكأنّ الأقدار أرادت أن تعبث بي فاندلعت نيران الحرب اليابانية نكاية بي، وقال لي المستنطق:

- أنت تعترف أن جوازك هذا ليس فيه اسمك، إذن فأنت تحاول الفرار من الخدمة العسكرية، ومن يدري؟ ربما أردت أمراً أكثر من هذا خبثاً وشراً.

وبيّنت له أنّ العلامات الفارقة في الجواز تثبت أنّي أعرج، وأنّها، بالتالي، تنطبق عليّ انطباقاً تاماً أنا يعقوب زيكوف.

ولكن ليس في سيبيريا أحد من الناس يصدّقه أحد من الناس.

وأخيراً قال المستنطق:

- ربما كنت بريئاً من الجريمة، ولكن يجب أن أحقق في أمرك.

كان الدكتور غائباً في تومسك وقازان، وليس لي من يعبأ بي.

ألقيت في غيابة السجن، وجعل اللصوص يسخرون مني ويقولون:

- ليس اسمك جازيكوف كما هو مذكور في الجواز، وليس اسمك زيكوف كما تدّعي أنت، ولكن اسمك الحقيقي «جازيف[1]» لأن شدقك هذا شدق سمكة.

ومنذئذ لم ينادوني إلّا باسم «جازيف». تلك الحماقة فوق العادة أزعجتني حتى لم أستطع إلى النوم سبيلاً طوال ليلتي الأولى في السجن وظللت أسائل نفسي:

- أَمِنَ المعقول أن يُترَكَ إنسان من بني آدم ينفق كما تنفق البهيمة لأن في الورقة غلطة قلم ليست ذات قيمة؟

وشكوت إلى الله أمري، فقد كنت في ذلك العهد مؤمناً تقياً، ومع ذلك فلم أصلِّ في السجن لأن الناس فيه يسخرون من المصلّين والمؤمنين، ولذا فقد كنت أقتصر على رسم الصليب فوق صدري في الخفاء حين أستلقي في فراشي، ثم أتلو ورداً أو وردين.

أمّا قبل أن أسجن فقد كنت أصلّي في حماسة وأنا راكع، وأقرأ «قانون الإيمان» مرّة و«أبانا» مرّة و«العذراء مريم» ثلاث مرّات، وكنت أحفظ هذه الأوراد جميعاً عن ظهر قلب، فقد علمتني «ليوبا» أموراً كثيرة، حتى أني بدأت أكتب بالمخرز على قشر الشجر.

---

1 - السمك في الروسية.

نعم إنَّ الإيمان غباء، ولكنني كنت في ذلك العهد شاباً لا يشغلني إلا الله.

كان معي في زنزانتي سبعة مساجين: أربعةٌ من سارقي الخيل، ومسلول يختنق، وعجوز متشرّد، وصانع أقفال في سكّة الحديد مرّ بنا في مرحلة من مراحل طريقه إلى روسيا. أمّا اللصوص فكانوا يقضون سحابة نهارهم وهم يقامرون، ويغنون، وأمّا الشيخ المتشرّد وصانع الأقفال فقد انتحيا ناحية يتناقشان ويتجادلان جدالاً لا ينقطع، والشيخ قبيح جداً: طال حتى كأنّه العود، وطال شعره حتى كأنّه فروة خوري، وانقلب أنفه رأساً على عقب، وقست عيناه في خبث ومكر، ومع ذلك فقد كان أكثرنا عناية بهندامه: يستيقظ قبل الناس جميعاً، فيغسل وجهه بخرقةٍ نظيفةٍ، ويمشّط شعر رأسه ولحيته، ويزرر كلّ زرٍ في ثيابه، ويظلّ واقفاً وهو يصلي لا يتمتم ولا يشير، ولا ينظر إلى الأيقونة في زاوية الحجرة، ولكن إلى النور من خلال النافذة إلى السماء. كان مريداً من أصحاب الطرق ولكنه مريد ذكي؟ أما صانع الأقفال فكان أسود كالغجري أو اليهودي، يكبرني عشر سنين، ثرثار مدهش، حديثه فوق العادة لا تحب أن تسمعه، شعره كأنّه شعر قنفذ، أسنانه لامعة كأسنان الزنوج، شارباه أسودان صغيران، وعيناه مثل عيون سكان الكرغيز، لكأنّه كان مطلياً كلّه مثل ذلك «الفقم» العالِم الذي يظهر على المسارح، ويزيد عليه أنّه لا ينقطع عن الصفير.

وسمعت العجوز يتمتم، واللصوص نائمون:

– علينا بالبساطة. إن الناس يتيهون في أمور كلّها عبث لا طائل تحته، وهم من أجلها يسحق بعضهم بعضاً. علينا أن نجعل الحياة بسيطة.

وصانع الأقفال يدمدم في غيظ:

- وهذا ما أراه!

- كلا ثم كلا، إنّك تعبد ما كان، ولست وحيداً فيما تعبد. إنكم تكذبون جميعاً، وأنت تكذب أيضاً، إنك تريد أن تكون فذاً، فوق العادة، مستعلياً على الناس، مستأثراً، وكلّ ما في الحياة من شقاءٍ سببه أن كلاً منّا يريد أن يكون ذا تميّز، وهنا منبع الألم، ومن هنا تنساب أفاعي السيطرة والتحكم والإرهاب، وها هنا يكمن كل ما في الغذاء والكساء وسائر حاجات الناس من تفريط وإفراط. وكل هذا ينبغي لنا أن نقضي عليه قضاءً مبرماً. أسمعت؟ حيث تكون الخصوصيات تكون السلطة، وحيث تكون السلطة يكون العدوان والمحاباة والجنون على اختلاف فنونه. إنّكم أيّها الناس لتتفانون وتتعادون في سبيل هذا التخصص، فيا لكم من مجانين! الإنسان لا يملك إلا ذاته، وعليه ألّا يملك إلّا ذاته، وعليه ألّا يملك الناس، وألّا يملك شيئاً دون الناس. ألا تراهم ألصقوا على ظهره جزازة من ورق، ثم هاهم أولئك يقذفونك حيث يشاؤون، وأنت لا تملك لنفسك ضراً ولا نفعاً ولا عملاً ولا سروراً.

فهمت فهماً مطلقاً كل ما كان الشيخ يقوله: كانت كلماته هذه هي الكلمات التي اختلجت في نفسي ثمّ جمجمت على لساني، وإذا كانت الحقيقة تكمن في ذاتك أَعْدَدتُ لكلّ سؤال جواباً، إنّها لكثيفة كثافة تستطيع معها أن تمسك بها إمساكاً.

وسَخِرَ اللصوص مني، وظنّوا أنّي غبي، ولست إلّا متغابياً. إنّك حين تتغابى تكون أكثر هدوءاً وطمأنينة، وأكثر مقدرة على معرفة الناس،

فهم لا يكترثون بالأغبياء ولذلك فهم يرسلون أنفسهم على سجيّتها أمامهم. وهكذا نظر إليّ هذان المتحاوران الدائمان نظرتهما إلى لا شيء، فكانا لا يكفّان عن الوشوشة في غيظٍ، وكنت لا أكفُّ عن الإصغاء إليهما في اهتمام.

ولم أجد، على ما فهمت، ما يدعوهما إلى النزاع، بل رأيت أنّهما كانا على وفاق:

- علينا أن نجعل الناس متساوين، وأن نقضي على كلّ تميز وتفرّد، ولو فعلنا ذلك لأصبح الناس جميعاً، شاءوا أم أبوا، إخواناً على سررٍ متقابلين، ولأصبحت كلّ الحياة يسيرة ليّنة. علينا أن نجعل الناس جميعاً كما يكون الناس جميعاً عادة، أمّا الطبقات - الكهنة والتجار والموظفون - أما السادة على العموم، فيجب أن نقضي عليهم قضاءً وأن نلغيهم إلغاءً، يجب أن لا يكون فوق الأرض رجل واحد يستطيع أن يشتري خبزي وعملي وضميري.

قال الشيخ:

- علينا أن نهب الأجنحة للروح، لتطير حيث تشاء، ولولا الحريّة الروحيّة لما كان الإنسان.

كنت أشرب هذه الأفكار كما يشرب المتعب كأساً من الخمر المنعشة، وأشعر عندئذ أن روحي تنبت لها، في الواقع، أجنحة من نور.

وقلت في نفسي: «تباركت أيّها السيّد المسيح. ما أطهر البساطة في الناس، وهم مع ذلك يعيشون في غمرةٍ من الآلام».

كنت أفكّر في ذلك كلّه، وأبتسم لذلك كلّه، واللصوص يسخرون مني وتزداد سخريتهم ويصيحون:

– انظروا، انظروا، هذا جازيف يحلم بخطيبته.

فأسكت ولا أجيب، وأمعن في التغابي، وأصغي ثمّ أصغي إلى ذينك المتحاورين فلا أجد أنّهما يفترقان إلا في نقطة واحدة: أما صانع الأقفال فيزعم أن الله – عزّ وجلّ – ليست له ضرورة، وليس فيه نفع، فكان العجوز يثور ويغضب، وكنت أنا أغضب وأتألم لما في حديث صانع الأقفال من غلظة وفظاظة، لقد كان الله في ذلك العهد نقطةً حساسةً في نفسي.

ولم ألبث أن ساقني الدرك إلى البلد الذي فيه قيدي، وأكّدت أسرة بوييف هويتي، ورأيت ربّها يموت على فراشه، وقد رفسه حصان، فقال لي:

– لا تتركنا يا يعقوب، فأنت هادئٌ، ساذج، ولم تخلق لتكون متشرداً.

ولم أقبل عرضه، فلقد رأيت منذ اليوم أموراً غير قليلة وتغلغلتْ في عقلي أفكار، واطبتني المدينة، ونصحتني ليوبا فقالت لي:

– سافر يا يعقوب. سافر ونقّب عن سعادتك.

وقصصت عليها أخباري وأفكاري، وقضيت ليلتي كلّها وأنا أحدّثها، وأدهشني ما رأيت في أفكاري من تماسك وما في مسيرها من نظام وتناسق، وليوبا تقول:

– صحيح... صحيح...

وقلت لها: تعالَي معي يا ليوبا.

فخافت وقالت:

– وما عساني أنفعك؟ لست إلّا عبئاً يثقل كاهلك، ومريضة

ترهقك، ثم إني لا أحبّ الناس الذين لا أعرفهم، أما من هنا فقد ألفتهم لطول ما جرّبتهم.

إذن فقد أبت أن ترافقني، فيا لها من فتاة بائسة، رقيقة، كنت أرىٰ روحي في روحها كما أرىٰ وجهي في مرآة، وودعتني وهي تبكي...

عدت إلى الطبيب في برناذول، وكان رجلاً عظيماً، وذكياً جداً، ولكنّ ذكاءه كان من الطرز القديم لا من طرزي، وكان قاسياً جلفاً لا تعرف أنّه من السادة إلا بما يمارس من عادات، أمّا هيئته فهيئة فلاح: صلب العود، ربعة، يمشي كأنّه إوزة، وحركاته صارمة ليس فيها ما لا نفع فيه، ووجهه وقور، أحمر، ذو لحية، وكان موفّقاً في عمله، كثير العناية بالمرضى، مدمناً للخمر ولكنه لا ينتشي ولا يسكر، ويحبّ النبيذ على الخصوص، وكانت عيناه حادتين مستقيمتين تلمع فيهما ابتسامة كأنّها تقول لكلّ إنسان:

– عبثاً تخفي نفسك، فأنا أرىٰ أنّك قبيح قذر.

وتهافتت عليه النساء وكان شبقاً لا يكاد يرتوي، ومع ذلك فقد كنت أحسّ أنّه برم بالحياة، كان عابس الوجه يتأوّه ويدمدم ويصرف أسنانه ويبصق، كأنّما أكل طعاماً نتناً متفسخاً، أرضتني بساطته ولم ترضني ابتسامته التي كانت تقول لي: «إنّ صاحبي يرىٰ أنّك أبله، وإنّ ثقته بك لا تساوي فلساً واحداً» وكان ذلك يؤلمني ولعلّه كان يخيفني.

رآني فاستقبلني استقبالاً ودياً حاراً وقال مازحاً:

– إذن فقد عدت يا علبة المصارين.

أمّا علبة المصارين هذه فكانت كلمته المأثورة المشهورة.

كان يمازح الناس جميعاً كأنّهم أطفال، يمازحهم ويداه في جيبه. قدّم لي كأساً من الخمر، وأمر بإشعال النار في السماور ودخل المطبخ يسألني:

- والآن حدثني.

نحن في فصل الشتاء، وعند المساء، والعاصفة تلف وتهمهم وتزمجر، وأنا جالس إلى المنضدة مع الدكتور كأنّي أجلس إلى صديق حميم، وأتحدّث فيصغي ويدخّن وينبش لحيته، وهي لحية غير كبيرة كأنّها ذيل دجاجة.

لم يحدث قبل اليوم أن تحدّثت إلى أيّ مخلوق، مفتوح القلب، منطلق اللسان، إذا استثنيت ليوبا، أمّا اليوم، وأمّا هذه المرّة، فقد أطلقت نفسي من عقالها تجري حيث تشاء، وتذهب أنّى تريد، واستيقظ في كياني تفكير مقدام جريء، فلقد علّمني السجن وعلّمني السفر أن أفكّر في كلّ شيء تفكيراً عميقاً، تفكيراً ربما بلغ بي حداً أغرق فيه في أفكاري، وإذا بي أصبح فجأة وكأنّي غير موجود، وكأنّي لست سوى روح تعيش وحدها في الفضاء الواسع، وهكذا فقد انطلقت في حديثي في يسر وفي سهولة، وكنت أنا أوّل من أصابه العجب:

- ليت ليوبا تسمعني.

وحدّثت الدكتور عن صانع الأقفال وعن العجوز، فجعل يضحك ويقول:

- أرأيت كيف أضلّوك؟ الحياة عند الغبيّ سهلة بسيطة، ولكنّها عند الذكيّ أكثر صعوبة وتعقيداً. والآن عليك أن تقرأ يا يعقوب، وأن تطالع، فالكتب تثبت لك عكس ما ذهبت إليه. إنّ الناموس الذي يهيمن علينا يجعل البسيط معقداً، والأرض قبل ظهور الإنسان كانت حجارة، وكفى،

لا تنتج شيئاً ولا ينبت فيها نبات، ثم تفتتت الصخور وتحوّلت إلى رمل وخضار ثم إلى تربة منبتة، ولم يكن في العصور التي سبقت التاريخ إلّا حيوان واحد، هو عصفور، أمّا الآن فأنت ترى آلافاً مؤلّفة من أنواع الحيوان والطيور، وكذلك كان سكان الأرض، كانوا جميعاً فلاحين ثم نجم منهم الأمراء والملوك والتجار والموظفون والمهندسون والأطباء، ذلك هو ناموس الكون.

كان يتحدث في مهارة وشعرت أنه يلفّني في كيس. وقال لي وهو يمزح:

– يجب عليك أن تنظر من هناك، من قمّة هذه الرابية، فهي في هذا المستنقع الذي نعيش فيه أعلى مكان.

شجاني حديث الطبيب وهزّني، وجار بي عن قصد الطريق زمناً غير قليل. أعطاني كتباً هذا المحتال، ولكنها لم تكن الكتب التي يقرأ، فكتبه ضخمة مجلّدة تملأ خزانتين، أما الكتب التي أعطاني فرقيقة صغيرة ذات صور كأنها كتب الأطفال، ومع ذلك فقد كنت أقرأ وأقرأ وأرى أنها تهدف إلى إبعادي عن أفكاري. كانت تقص لي حياة الناس في العصور الذاهبات، فأرى أنها شاقّة، وأرى أن تلك الكتب تريد أن توحي إليّ أن حياة تلك العصور كانت أكثر خبثاً وأعمّ شراً من حياتنا نحن في هذا العصر. إنها كتب قمينة بتهدئة الأعصاب وهدهدة العواطف، ومع ذلك فقد كنت أقرأ وأفكّر:

– وما يدريني أن ما في هذه الكتب صحيح؟ فأنا لم أر ما تقصّ عليّ. ثم إنّي لا أعيش في تلك العصور البائدة ولكنّي أعيش في عصري هذا

وزمني هذا، فماذا يجديني أن أعرف ما كان يجري في تلك العصور؟ نحن لا نستطيع أن نجعل الماضي سعيداً، فقد مضىٰ أمس يحمل أوزاره علىٰ ظهره إلىٰ غير رجعة، ولكنّا نستطيع أن نجعل يومنا هذا سعيداً، وأولىٰ بنا ثم أولىٰ أن نتعلم في الكتب كيف نستطيع أن نبني المستقبل السعيد.

وسألني:

- هل تقرأ؟

- نعم.

- أليست القراءة لذيذة؟

- نعم.

لم أقل له أن كتبه لم تقنعني، ولم أسأله عمّا يهمني، وليس ما يهمني أن أعرف ماذا كتب الناس في الكتب، ولكن الذي يهمّني أنْ أعرف لِمَ كتب الناس ما كتبوا؟ لم أسأله عن شيء من هذا لأنّي أعرف أنّهم إنّما كتبوها ليسكّنوا أعصاب الناس وليَطْمَئِنّوا من ثورتهم وقلقهم.

وألفت القراءة وأصبحت لي عادة: إنّك لَتُكِبُّ علىٰ الكتاب وتغمس فيه بصرك كأنّك تغمسه في هاوية سحيقة، والكلمات تجري وتنساب، والكلمات تترجرج وترقص، والساعات تجري مهرولة غير منظورة، ثمّ تعود إلىٰ نفسك، يا للعجب العجاب، كأنّك لم تعش علىٰ الأرض، خلال تلك الساعات، كأنّك كنت في غير هذا العالم، في عالم آخر مسحور.

ولست أحب أن أتذكّر الكلمات التي تَرِدُ في الكتب، بل لست قادراً علىٰ تذكّرها، وهبني علىٰ استرجاعها قادراً، فليست لي بها حاجة، إن لي كلماتي.

وكنت أجد كلمات لا أفهمها: إنها تطنّ في أذني طنيناً، ولكنّها لا تعني شيئاً. ومع ذلك فقد كنت سرعان ما أدركها، وأنت قادر على فهم أفكار غيرك إن كانت لك أفكارك، والفكر نور صادق يريك ما في الناس من رياءٍ وخداع، وهكذا كانت أفكار الناس تذوب في أفكاري كما تذوب الفراشة في نور الشمعة. ذلك أمر يحق لي أن أفخر به.

ورأيت أنّ حواري للطبيب يفيدني أكثر مما تفيدني المطالعة، وكان إذا فرغ من أعمال المستشفى وعيادة المرضى، خلع معطفه وحذاءه، ولَبِسَ نعلاً رقيقاً، وتمدّد على ديوان وإلى جانبه زجاجة نبيذ، ثمّ لا يزال متمدداً يدخّن ويشرب ويبتسم ويثرثر ويدور حول موضوع واحد:

– نحن عبيد الماضي، فللخرافات في نفوسنا جذور متأصّلة عميقة وعلينا أن نقتلعها في حذر وحيطة وإلّا أفسدنا التربة الطيّبة. أمس يحكم اليوم، واليوم يتحكّم في الغد، ومهما نصنع لا ننج من عنعناتنا وتقاليدنا.

كان يردد هذا دائماً، ولكنه كان أحياناً إذا استبدّ به الضجر، أضاع الحذر فتندّ عن لسانه مثل قوله:

– إلى حيث ألقت...

ثم يستدرك مسرعاً:

– ولكن لا... هذا مستحيل!

وأزعجني أن أصغي إليه وقلت في نفسي:

– إليك أيّتها النفس هذا الرجل الذكي، إنّه يعرف كلّ شيء، يعرف ما يجب أن يعرفه ويعرف ما يجب أن لا يعرفه، وهو على الرغم من ذلك غير راضٍ بعيشته، وهو على الرغم من ذلك يخاف الحلّ البسيط ويهرب منه.

أمّا أنا فقد وجدت هذا الحلّ وقبضت عليه بكلتا يدي: إذا سقط عصفور الجنة — وليس عصفورها إلا الحريّة الإنسانيّة — في خيوط فخ من التفاهة والخرافة تكاد تخنقه وتُزهِقُ روحه، إذا سقط هذا العصفور في تلك الخيوط فما علينا إلّا أن نقطّعها تقطيعاً ونمزّقها تمزيقاً ثم نطلق ذلك العصفور.

وعرّضت بذلك أمام الدكتور وألمحت إليه، ألمحت إليه أن ليس هنالك وسيلة أخرى نحرر بها الإنسان، ولكنّي لم أصارحه برأيي، خفت أن يهزأ بي، أو لعلّي لم أصرّح بذلك لأمر آخر... كنت أحترمه لأنّه يباسطني في الحديث وكنت إذا أغلظ لي لا أبالي.

ولقد كانت لكتبه وأحاديثه فائدة واحدة على الأقلّ، هي أنّها ذهبت رويداً رويداً بإيماني، وما أكثر ما يصبح المرء أصلع وهو لا يدري، ها هو ذا يداعب قفاه ذات صباح، وكان أمس ذا شعر كثيف، فإذا به ولا شعرة فيه. ولم يخفني ضياع هذا الإيمان، ولكنّي شعرت في روحي ببرد قليل كريه، لم يمتد زمناً طويلاً، فما أسرع ما فهمت أنّي طالما عشت على الأرض وكأنّي أعيش في بلد غير بلدي، وفوق أرض ليست أرضي. كنت أرى الكون كلّه من وراء الله، كأنّما أراه في قرارة بئر عميق، أمّا الآن فقد بدت أمامي فجأة رحاب عريضة واسعة وامتدت أمامي آفاق رحبة بعيدة، وإذا بي أشعر أنّي جريءَ الفكر، وثّابه، وإذا بي أطلب من الله إجازة دون ما أسف، وعلمت أخيراً أن ليس يؤمن بالله إلا حثالة البشرية: إلّا أعداؤنا.

وجعلت منذ ذلك العهد أكتشف تلك العرى التي تشدّني إلى عمل غير عملي عروة عروة، وما أكثر ما بذل الناس من عناية في سبيل إخفائها

عني وتضليلي، وعرفت عند ذلك ما في حياة الدكتور من تفاهة ومسكنة ومن قوقعة خارجية زائفة. أباطيل كثيرة: كتب وأثاث وثياب، أنت تؤكّد لي أنّ الأمور الخارقة فوق العادة يتطلبها جمال الحياة، وأنا أقول لك: إذا كنت حريصاً على هذا الجمال فامضِ بي إلى الغابات، وأوغل في الحقول تجد الزهر وتجد الزرع وتنقذ وجهك من الغبار وعينيك من القذى، وتجد النجوم التي لا تحتاج إلى مسحها بالخرق البالية، بينما أنت هنا ترهقك ترهات الأرض إرهاقاً وتزحم حياتك وتضطرك إلى عمل حقير.

إنك أيها الدكتور تقضي في أخذ زينتك ولبس ثيابك خمس دقائق، ولكنك تقضي أكثر من هذا الوقت في أزرار أكمامك ورباط رقبتك، إنّك تولج تلك إيلاجاً وتعقد هذا تعقيداً، وتسبّ وتلعن كأنّك فلاح. دع عنك ما يتطلّبه حذاؤك ذو الأزرار من جهد ووقت، بينما تستطيع أن تنتعل حذاءً روسياً بسيطاً دفعة واحدة، أفهمت؟

كل هذه الأزرار والأربطة، كل هذه الآلاف المؤلّفة من الترهات والأباطيل، كل ما في الحياة من تزاويق وبهارج يجب أن نحطّمها وننقذ الإنسان منها. أحط نفسك بكل ما هو متين مكين تصبح أنت أكثر متانة وأشدّ تمكناً، أما الألاعيب وأما التهاويل فيجب أن تكنسها كنساً.

وعرفت تذوّق السادة لكلّ ما هو تافه في أحاديث الدكتور، هذا الرجل الذي يبدو لك مفكّراً وحكيماً ثم هو لم يستطع إنقاذ نفسه من هذه التوافه، ولم يستطع أن يرى أنّ كلّ نوع من أنواع السيادة يعتمد على الترهات: الكتب، الألاعيب، الآلات... إنّ الإنسانيّة قد كبّلتها قيود من الورق. وليس من مصلحة الدكتور أن يفهم هذا لأنّه هو نفسه شريك

السادة في هذه السيطرة، وهكذا كنت أجده إذا ضرب صرح الفساد الاجتماعي بفأسه ضربة أو ضربتين أسرع فغطى موضع ضرباته بشبكة من الكلمات، وأسرع يردّد أنّ علينا أن نكون أولي حذر وأصحاب حِيْطَةٍ، وأنّنا لا نستطيع أن نصنع كل ما هو خير دفعة واحدة. إنه إنسان يحرق نفسه بنار غضبه، وينصب نفسه غرضاً لسهامه، والحقّ أنّي أشفقت عليه في كثير من الأحيان.

ولم أنس أثناء تطوّري الفكري حياتي الخاصة، فدبّرت أمري مع امرأة، كانت ممرضة في المستشفى، شقراء ذات عين واحدة خضراء، أمّا عينها اليسرى فقد غمس فيها حبيبها، وكان فراء، إبرة، ففقأها وسالت العين في نظافة لا بأس بها، وهبط الجفن فغطّى العين غطاءً تاماً، ولم يشوّه هذا الحادث وجهها تشويهاً خاصاً، وكان وجهها نحيفاً وأنفها كبيراً بعض الكبر، ولكنّه لم يزعجني، وكانت هذه الممرضة تعيش مغمضة العين، صامتة، عبوساً، ومع ذلك فقد كان يرى الناس فيها امرأة عاهرة.

ملت إليها، وألهبت عينها الصغيرة الخضراء دمي، فكأنّه لم يلتهب أبداً، وأنت تراني أعرج ولكنّي مع ذلك قويٌّ شديد، وكان وجهي أكثر لطفاً، وكانت النساء تطري عيني كثيراً، بل إنّ ليوبا نفسها قالت لي مرّة:

– لك عينا فتاة يا يعقوب.

ولكن تاتانيا لم ترتضيني بادئ بدء فقلت لها:

– أنت عوراء، وأنا أعرج، فلنعش خليلين.

– كلا، لا أريد، كفاني ما لقيت منكم يا معاشر الرجال.

وألهبني عنادها أكثر مما ألهبتني عينها، وجعلت أدغدغ شغاف قلبها فلانت وظفرت بها، وتقلبت منذ ذلك اليوم في ماء يغلي ويفور.

كانت في دعابها شبقة شبقاً وحشيّاً، شهوانيّةً شهوة بهيميّة، فكأنّ حبّها معركة، وسرعان ما شعرت أنّ العمل الجنسي لا يلذها مثل ما يلذها أن تمتصّ قواي امتصاصاً، وأن تلقي بي نضواً هزيلاً كالعود اليابس.

وكانت إذا لم تظفر بي غضبت وزادت شبقاً وشهوة، وسألتها ذات يوم وكانت صريحة مستقيمة:

- أتخدعينني؟

- كلا.

وسكتت قليلاً مفكرة ثم قالت فجأة:

- ولكن... ألا ترى؟

ثم تابعت وكأنّها تصفعني:

- نعم.

وهممت بضربها ولكنّها تنهّدت ونظرت إلي بعينها الخضراء الوحيدة، وكأنّها تائبة من ذنب، أو كأنّ خيانتها أمر لا يتعلق بها وليس لها عليه سبيل، ولقد تألّمت، فالحب صعب، وربما أصابك مرض مخجل، ومع ذلك فقد أرضتني صراحتها وسرعان ما رأيت أنّ روحها شقيقة لي، وأنّ ذكاءها غير نائم.

كانت شرسة، إذا لمستها تأججت، خبيثة يتفجر الخبث في كل كلمة من كلماتها، وتلمع عينها لمعة شريرة حاقدة، وسألتها مرّة وهي في ساعة من ساعات لينها النادرة:

- لماذا أنت خبيثة هذا الخبث كلّه؟!

وعندئذٍ قصّت عليّ قصة فوق العادة، كانت يتيمة تسكن في منزل أختها، وعندما بلغت السادسة عشرة من عمرها أزال بكارتها زوج أختها وهو سكران، وتحمّلت عامين عارها خجلاً وخوفاً، ثم اكتشفت أختها علاقتها بزوجها فطردتها طرداً، وخرجت من بيت أختها إلى المواخير فعاشت مومساً ثلاث سنوات، وأشبعها الزبائن السكارى ذات يوم ضرباً ولكماً، ودخلت المستشفى ورآها الدكتور فيه فقبلها ممرضة عنده، وأثار وجودها في مستشفاه فضيحة وألحّ الناس في طردها ولكنّ الدكتور أصرّ على إنقاذها ورفض طلب الناس.

وسألتها:

- أيضاجعك؟

ففتحت عينها وقالت ساخرة:

- لسنا نصلح لمثل هذا الحيوان. إنه لم يلمسني لمساً.

- إذن فعلام تسخرين منه؟ وكان عليك أن تشكريه.

ومصّت شفتيها في غيظ وقالت:

- سأشكره ذات يوم.

حقاً لقد كانت امرأة نادرة، وسنجدها مرّة أخرى في قصتنا، كانت ممشوقة القوام، رشيقة كالسنجاب، إذا برزت للناس أخذت زينة متواضعة فتبدو من أجلّ السيدات. نعم إنّ وجه ليوبا كان أكثر ظرفاً ولطفاً ولكنّ ليوبا سقيمة عليلة.

وعشت أجلو نفسي في لطف وهوادة، والحرب يشتدّ أوارها في

عنف وقسوة، فهي تبتلع الناس كما يبتلع الموقد الحطب، ودُعِيَ الدكتور إلى الخدمة فقال لي:

– والآن يا علبة المصارين... هيا معي نرقع هـؤلاء الأغبياء الـذين يدمر بعضهم بعضاً...

ومضينا ومضت معنا تاتانيا وهي تدمدم:

– يا لهم من أغبياء.. هيا اكسروا بنادقكم ومدافعكم وقطركم.. وصيحوا: خذوا عنا حربكم.

نحن نعرف أنّا لا نملك في الحرب حظاً ولا نظاماً، وهكذا كانوا يقذفون بقطارنا من محطة إلى محطة، فنحن نتدحرج تدحرجاً ولا نعمل عملاً، وغيوم من الجنود تمرّ أمام أعيننا رمادية قاتمة... كانوا يذهبون إلى الحرب وهم يُطَرِّبُون ويُغنّون، ويعود الذين يعودون منهم وهم يصرخون ويئنّون.

وغضب الدكتور وسوّد صفحات كثيرة، وأرسل برقيات وطلب عملاً وقال لي:

– أرأيت يا علبة الأمعاء كيف يعاملون الشعب؟

ثمّ لم يلبث أن اغبرّ وجهه، وانتفخت أوداجه، وشتم الناس جميعاً، وسبّ السلطات والحرب والفوضى، وعجبت من جرأته ومغامرته وقلت لتاتانيا:

– ألا ترين كم يطلب عملاً؟

ودمدمت الخبيثة بين أسنانها وعينها مغمضة:

– ذلك أنه يطلب الأوسمة!

- كلا. إنّ له دافعاً آخر أكثر نبلاً.

كان يتحدّث حديثاً معقولاً رزيناً كما يتحدث الولد الصاحي عن والد سكّير هو وارثه الشرعي، وكان الموظفون في المحطّة والجنود الذين يحرسون سكّة الحديد، وكلّ من في المحطة يصغون إلى حديثه في ثقةٍ وإيمان، حتى أنَّ الدرك أنفسهم اعترفوا أنّ الأمور لا تسير على ما يرام، وحاولت أن أنبّه الدكتور وأن أطلب إليه أن يكون أكثر حذراً وحيطة، ولكنّي لم أستطع إلى ذلك سبيلاً فقد كان عسيراً أن تقاربه ولو فعلت لنالتك لطمة أو صفعة من هذا الذي يتميّز غيظاً.

وفجأةً جاءنا عجوز صغير، إنّه كلب نائم، ذو صليب أحمر على ساعده ومعطف أحمر على زواياه، ولعلّه مفتش، وجعل يتخبّط ويتقلّب ويزعق بالدكتور:

- إلى المحاكمة... إلى المحاكمة.

وجعل الدكتور يولج أوراقه في أنف العجوز، وهو أنف صرد ويهتف: وهذا ما هذا؟

وأنت تعلم أن الأوراق ليست عند السلطات قانوناً نافذاً كما أنّ الأيقونة ليست عند من يصورها رباً معبوداً، وألقي القبض على الطبيب وقام الدرك بحراسته، وعند ذلك رأيت تاتانيا صاحبتي تنقلب انقلاباً وتخض المحطة خضاً، عند ذلك عرفت بسالة هذه المرأة وشجاعتها، كانت تخاطب الناس جميعاً وتلقى الناس جميعاً، ويسخر بها من يسخر:

- إذن فالطبيب عشيقك؟!

وسخروا مني، وأحسست أنّي لست على ما يرام. نعم إني لم ألاحظ أنها

كانت تخونني فتتصل بالطبيب، ولكن هل من الممكن أن تراقب هذه الأمور؟ إنّها تجري في لطف وفي رفق ولا تستغرق إلّا دقيقة واحدة، ثم إنَّ ثياب النساء أكثر من ثياب الرجال يسراً وسهولةً، وأكثر ملاءمةً لمثل هذه الأعمال.

وقلت معزّياً نفسي:

– لعلّها إنّها تعترف بجميل الطبيب وتجهد نفسها في سبيله. ولست أدري كيف انتهت ثورة تاتانيا. لقد كانت الخوارق فوق العادة في ذلك العهد ترفرف فوق الأرض كما ترفرف الغربان عند مغرب الشمس، وكان درك المحطّة لا يعرفون ما يصنعون، هاهم أولئك يهزّون مسدّساتهم ويهدّدون الناس بإطلاق النار.. وبدأتْ طلائع الثورة في تلك الأثناء وشرع الجنود يهربون من ميادين القتال...

وفجأةً اكتسح المحطّة قطار ليس له سائق. ولا أدري كيف استطاع أن يقف على بعد كيلومتر واحد، وكان لا يحمل غير الجنود، وجاؤوا من كلّ صوب يهرعون، وجعلوا يطوفون، وأثاروا غباراً يستحيل عليَّ أن أصف كثافته وسواده، وخنقوا مدير المحطّة وهم يصرخون في وجهه:

– نريد سائقاً، نريد سائقاً.

وضربوا فقتلوا دركياً عجوزاً، كان خبيثاً، ودمّروا كلّ شيء، وقلبوا كلّ قائم، وبعثروا كلّ مجتمع، وأخيراً أخذوا عامل الحوض، ومضوا به إلى قطارهم منتصرين.

وها نحن أولئك في المحطّة بعد رحيلهم كأنّا في حريق: الزجاج يطقطق تحت أقدامنا، والدكتور، وقد أطلق سراحه، يغمس يديه في جيبيه، ويغمز بعينيه، كأنه يستيقظ من نوم، وأنا أقول له:

- يجب أن نروح!

- اخرس، وأين نروح؟

وأمرنا أن نحمل الجرحى والقتلى، ولم نكد نجمعهم حتى داهمنا قطار آخر يدوي دوياً، ويتفجر جنوداً مجانين، ومضى في طريقه وجاء قطار ثالث، وهكذا دواليك، وانقلبت الأرض بالناس فما يدرون أقيام هم أم قعود؟ وما أريد أن أقصّ عليك ما كان، فأنت تعلم تلك الزوبعة البشريّة التي قامت قيامتها في ذلك العهد.

أما أنا فقد فزعت فزعاً كفاني وأغناني ما بقي لي من عمري، وخاصّةً عندما أخذ الجنود قطارنا فيما أخذوا. وهرب المرضون والممرضات وحتى حملة الجنائز ولم يبق منا غير ثلاثة: أنا والدكتور وتاتانيا، وجنّ الموظفون في المحطّة جنوناً، والقطر تروح وتغدو دون هوادة، والصرخات والزعقات تروح وتغدو معها دون هوادة، وإذا هدأ الليل زاد الفزع وتفاقم الهول، والمحطّة صغيرة، والمحطّة منعزلة، والغابات تطوّقنا، وفي إحدى الزوايا قرية صغيرة للمهاجرين، إذا اشتعلت بها المصابيح خُيِّلَ إليك أنّها عيون ذئاب. يا لهول ما رأينا! كنّا نقضي ساعة أو ساعتين يلفنا صمت أسود، كأنّنا في قعر هاوية سحيقة، وإذا بنا نسمع من بعيد أزيزاً يقترب، ودويّاً يشتدّ، وإذا بنا بعد لحظة نرى بأعيننا جندياً كالوحش يدور ويلوب كأنّما تسوقه الشياطين بعصاها الساحرة.

ومضت عشرة أيّام ونحن نعاني هذه العاصفة. أمّا لِمَ ثارت؟ فلست أدري، كلّ ما كنت أعرفه أنّنا كنّا نعنى بتسعة مرضى في المستشفى، فمات منهم أربعة، وعاش منهم خمسة يؤلمهم الرعب أكثر مما يؤلمهم المرض،

والدكتور يقول للناس جميعاً إنّ الثورة قد اندلعت نيرانها، وإنّ السلطة الحاكمة سينالها التغيير، وأنا أفكّر في هذا التغيير وأقول:

– إذن فهنالك قيد جديد يصوغونه ليشقى به الناس.

وتركزت هذه الفكرة في ذهني حتى أصبحت كالصخرة، أمّا تاتانيا فكانت تصغي إلى الدكتور في لهفة وعنف. وحدث في ذلك الحين حدث صغير: كنت أقترب من مهجع الدرك وكان المرضى يحتلونه، فسمعت تاتانيا تقول:

– أأنت متقزّز مني؟

وتطلعت من النافذة فرأيتها واقفة أمام الدكتور كأنّها وتر مشدود، أمّا هو فجالس يدخن ويزمزم وينظر إلى قدمي تاتانيا ويقول لها:

– اذهبي... اذهبي...

وخرجت العوراء إلى الدرج، ومسحت يديها بذيل ثوبها ثم صرخت:

– لا ضرورة لبقائنا هنا.

وضحكت وقلت:

– ذلك أكيد.

وراقبتها عن كثب. وحاولت أن أفجأها مع الدكتور. ولو فجأتها لضربتها فطالما زهت عليّ وتكبّرت وافتخرت بما لقيت في حياتها الماضية من مآسٍ وحوادث، ولكنّ المناسبة لم تساعدني، ولم أشأ أن أضربها هكذا دون سبب. وقلت: كفاني ما كان.

واستأذنا الدكتور بالرحيل فأذن لنا ومضينا في طريقنا سيراً على

الأقدام، ذلك أنّ تاتانيا لم ترغب في ركوب القطار وهي تعرف أنّ مثلها عند الجنود مثل شحم الخنزير عند الفئران.

سايرنا الخطّ الحديدي، وكنا ندخل القرى في طريقنا فتطعمنا وتسقينا. حقاً إن الإنسان ليستطيع أن يعيش. كان الفلاحون يَهبُّون من نومهم وتفتح اليقظة عيونهم، ويتلهّفون إلى اكتناه المستقبل. وتاتانيا تردد كلمات الدكتور. وأنا أقول لهذا أو لذاك في هذه المناسبة أو في تلك:

– لنتفق على جعل الحياة بسيطة. أسمعتم؟ إنّ قوى السادة تضعف وتخور، وهم لا يعرفون كيف تُدَبَّرُ الحروب، ونحن لا تخضعنا قواهم بقدر ما تخضعنا أفكارهم وأباطيلهم. لقد دقّت الساعة... وحصحص الحقّ.

كنا نستريح ثم نستأنف رحلتنا ونستأنف دعوتنا، وشعرت أنّ تاتانيا ماتزال ناقمةً على الدكتور رغم أنّها آمنت بكلماته وأيقنت أنّ الثورة عيد من الأعياد.

قلت لها:

– تذكري أيّتها البلهاء الصغيرة أمراً واحداً، إنّ السادة لا يقدرون على الحياة دون خدم...

وكانت تزمجر وتأبى أن تصغي إلى قولي.

وأخيراً ركبنا قطاراً هادئاً وبلغنا (تشيتا)، كانت العاصفة تتمخّض ثم تنفجر في الشوارع، وفي الساحة العامّة، والشعب يتلوى كما تتلوى في السلة السراطين.

والصينيون يسندون ظهورهم إلى الحيطان ويسخرون، أمّا وقد مرّ

ذكر الصيني فاسمع رأيي فيه: إنّه ذكي، يقول لكلّ إنسان أنت مصيب، ولكنه لا يؤمن بأحد، عبثاً تحاول أن تلاعب صينياً بالقمار. إنه الرابح دائماً.

وتاتانيا مسرورةٌ فرحةٌ، وعينها الخضراء برّاقة لامعة، وأسنانها الصغيرة تبدو للناس وهي تصرخ بهم:

– كفانا ذلاً... كفانا هواناً...

وأراها فأضحك على الطريقة الصينية، ماذا يعنيني أن يذهب بعض البيادق إلى الفرازين؟

وجعلت أبيع الصحف وأتجوّل وألاحظ، وعرفت ولداً كان سجيناً سياسياً، ثم استطاع الفرار. كان قويّاً شديد القوّة، طويل الذراعين، ومع ذلك فقد كانت مهنته تستدعي الضحك، فهل ظننت أنّه كان ساعاتياً؟ كان من تلك (السلطة) التي استولت على الحكم في المدينة، وكان يرى أن الثورة هي الخطوة الأولى في طريق الحريّة. وقلت له:

– أمامك خطىً كثيرة فسر وأسرع، ولا يُلْهِيَنَّكَ هذا النصر المؤقّت، ولا يَأْخُذَنَّكَ الفرح إذا جلست في مجلس «الدوما» إلى جانب سادتنا.

ويعدني الوعود ويقول:

– مهلاً... مهلاً... سنسير في طريقنا ونسير. كان طيباً وكان ساذجاً، ولكنّه سرعان ما يؤمن بالأحزاب، وما الأحزاب؟ هناك حزب العمال وحزب الفلاحين، وأحزاب بورجوازية كثيرة، ولكنها جميعاً لا تعمل في سبيل الشعب، بل تعمل ضدَّ القيصر. أما اليوم فقد أصبح حزبنا وحده هو الذي يمشي في الصراط المستقيم.

وبدأت إبادة الشعب إبادةً وحشيةً منظّمةً، فقد وصل المدينة ضابط يقود جنوداً، فانهارت الثورة واستحالت إلى تراب...

قال لي الدكتور ذات يوم: إنّ المجازر في بطرسبرج قائمة على قَدَمٍ وساق، والشعب يُبَادُ في شوارعها ويُذبَح ذبح النعاج.

ولم أصدّقه، وظننتها إحدى أباطيله، أمّا الآن، وبعد أن رأيت ما فعل الجيش في تشيتا فقد صدّقته. كانوا يسحقون الناس كما يسحقون الجوز، ويقتلونهم حيث ثقفوهم، دون نقاش، ويلحّون على ذبحهم ذبحاً لا يصدر إلّا عن ذعر شديد، وهذا الذعر بادٍ على الوجوه جميعاً، وجوه الجند ووجوه الشعب. ويُخَيَّلُ إليك عند أوّل نظرةٍ أنّ عيون الناس أصبحت من زجاج، إنّها عيون عميان، أو عيون موتى، فإذا أنعمت النظر رأيتها ترتجف.

كان لصاحبي الساعاتي صديق يدعى «بيير» وهو ولد جريءٌ ملّاح هرب مثله من معتقله، وكانت يده اليسرى ذات ست أصابع، وأرادت الشرطة قتله فافتدى نفسه بسبعة عشر روبلاً، فعاد يقول لنا:

– تأمّلوا قليلاً أيّها الرفاق: إنّنا ندمّر كلّ شيءٍ قولاً، ولكنّنا نستحيي من قتل فأرة فعلاً، أمّا هذا القائد... لو قتلنا رجلاً واحداً لتألّمنا وندمنا، أمّا هم فيقتلوننا كما يقتل اليابانيون السمك.

ولقد كان هذا القول صحيحاً، وأنا الذي رأيتُ ما بين أقوال الثائرين وأفعالهم من فرق، وعلّمني العهد الذي قضيته في تشيتا فأحسن تعليمي، رأيت أشياءَ كثيرةً، وفكّرت في أمورٍ كثيرةٍ، وازدادت أفكاري رسوخاً وتمكّناً.

ونجوت من الموت بأعجوبةٍ، أُلقيَ القبض عليّ وعلى الساعاتي وساقونا إلى ساحة الإعدام، وفجأةً نظر إليّ وكيل الضابط وسألني:

– يا أعرج! من أين أنت؟ ألست من برناؤول؟

وقال للجنود:

– خلّوا سبيله فأنا أعرفه... إنّه أبله وكان حوذيّاً عند الدكتور.

وسررت بالنجاة وقلت مازحاً:

– وعلامَ تقتلون الأغبياء؟ اذبحوا الأذكياء وحدهم كيلا يفسدوا علينا حياتنا.

ودفعني وكيل الضابط في درب صغير وهو يصرخ:

– سِرْ في طريقك يا بن الكلب، واشكر الله على ما في نفوسنا من صلاح.

ونجوت، وسِيْقَ الساعاتي فأعدمَ رمياً بالرصاص. ورأته تاتانيا هناك يتمدّد على صدر التراب، ووجهه لا يزال يفيض بالحياة، ويمور بالنشاط، وفي يده قبضة من تراب وطنه، ولكنّهم ذهبوا بحذائه.

وهجرت تاتانيا، فقد نفر أنفها الكبير أفكاراً سياسيةً من صاحبها الملاح، وشرعت تلقي عليّ دروساً، ولست ممن يألف الدروس. إنّ أولئك الذين تهمّهم السياسة لا يساوون كبير شيء، فالسياسة تفكّك ذكاءهم وتخلعه، فإذا بهم لا يفهمون الحياة في مغزاها البعيد، أمّا أنا فكنت أرى الإنسان في أعماق نفسه، وأسبر غوره وأقول: عقلنا وحده هو الحكم الفصل، والقاضي الصادق، أمّا السياسة فتسيطر على هذا العقل وتبطش به. رأيت كثيراً من أفراد الحزب يناضلون ولكنّهم جميعاً

كانوا يستهدفون غاية واحدة: أن يَبْرُزَ كلٌّ منهم أكثر ذكاءً من سائر الأفراد.

وقالت لي تاتانيا ذات يوم:

– أنا أعرف ما أفعل، ولستَ أهلاً لمعرفة ما تفعل. أنت تملأ السماء بالدّخان، ولا تريد أن ترىٰ في الأرض غيرك.

وكرهتها كرهاً عنيفاً فتركتها واشتغلتُ حارساً في محطة ذات اسم مضحك، كأنّما هو أمّ شاحوط.

عشت وراقبت: الناس يطرقون رؤوسهم وهم يائسون وأنا أتغابىٰ وأصطنع البلاهة وأشتغل في وجدان، وأطلب رضا الناس جميعاً وأردد كلماتي الحمقاء:

يجب أن نسوّي بين الناس، يجب أن نجعل الحياة بسيطةً. والناس يسمعون كلماتي ويفهمونها، وأنا أتحدث في جرأة حتىٰ أمام الدركي، وكان هذا الدركي روسياً صغيراً يدعىٰ كيريانكو، ضخم الجثّة، له خرطوم السلور وشارب الصيني، وكان أبله حقاً.

كان يدحرج عينيه، ويصغي، ويمخط ويبصق، فإذا جاء الليل – وكنت حارس ليل – أتاني يلقي عليّ نصائحه:

– ستؤدي بك أقوالك إلىٰ الإعدام. هذا كلام الثوار.

وأجيبه في سذاجة:

– اسمع يا اوسيب ابجوريفتش. إنّ الثوار ليسوا معلمين للبسطاء من الناس، ولكنّهم لهم أعداء. إنّهم يبحثون عن السلطة، أمّا نحن فنبحث عن حرية الروح.

ويمخط كيريانكو ويقول:

– يسرني أن أسمع منك هذا الحديث، ولكن كن أكثر حذراً. أنت بريءٌ مسكين ولكنَّ أصحابنا لا يرون ما ترىٰ، أمّا أنا فأرىٰ أنّ في حديثك وحي الإنجيل، وليس الإنجيل في مثل هذه الظروف أقلّ خطراً.

* * *

وأصبح كيريانكو لي صديقاً طيباً. ونفعتني صداقته، فقد كانت كلماتي تنفذ إلىٰ قلوب الناس، فهرعوا يتوافدون إليّ من المحطات ويستمعون، وجاء معهم آخرون يريدون أن يعلّموني، ويعرضون عليّ أن أدخل في صفوف الحزب. وكنت أصطنع مع هذه الزمرة من الوفود غباءً أبذل في سبيله كلّ ما في عقلي من قوةٍ، فلا يلقون مني غير النفور، وكيريانكو يقول لي حيناً بعد حين:

– انتبه وخذ حذرك.

كان من الممكن أن تطول بي الحياة علىٰ هذا النمط هادئةً مُطمئنةً، لولا أنّ الشيطان ألقىٰ في طريقي بمشحّم القطر «سيمون كورناشيف»، شعر أجعد، وشدق مرقّش كأنّه شدق دهّان، يرقص ويعزف ويهرّج. ولكنّه كان متفتّح القلب والعقل. وسرعان ما اعتنق مبادئي وآمن بها. ولكنّ بعض الناس دفعوه إلىٰ الشرّ دفعاً.

وفي ليلةٍ من ليالي الربيع سمعت: بم بم الطلقات تدوي من وراء المحطة، وهرعت إلىٰ هناك ولكن في بطء وهوادة: ليس يجدي المرء أن

يصل إلى الحادث أوّل الناس. ورأيت سيمون يركض إلى الصهريج. وظننت أنّه ليس من أطلق النار. وأنّ النار قد أُطْلِقَتْ عليه. واجتمع الناس يصرخون:

- قُتِلَ كيريانكو.

كان كيريانكو ممدّداً على قارعة الطريق، ورأسه في السياج، وذراعاه أمام رأسه. وتراكض الموظفون وشرع بعضهم ينصح بعضاً:

- لا تمسّوه.. لا تمسّوه..

وركض أيضاً سيمون يحمل بيده مطرقةً. وجعل يردّد أكثر من الناس جميعاً ولا يقف عن الترداد:

- كنت عند الصهريج، وفجأةً سمعت صوت الطلق الناري. كنت عند الصهريج.

وقلت في نفسي عندئذ:

- إذن فأنت القاتل، أيها الجرذ الوقح!

وجاء الدركي الثاني، وهو العجوز فاسيلييف يصرخ:

- وجدت المسدس. رائحته نفط. تذكروا: رائحته...

وشمّ الناس المسدس وشمّه معهم سيمون ودمدم:

- حقاً... إنّ رائحته نفط.

كان سيمون يقول ذلك وفاسيلييف يصارحه:

- عندنا اثنان فقط يلوثهما النفط... أنت وميكيفتش، ولذلك فأنتما متّهمان...

يا للعجوز ما أحمقه. لو كان أخرس لكان ذلك خيراً له. وأعلنت أنّي

رأيت سيمون عند الصهريج حين دوى الرصاص. فلقد أشفقت على الفتى، ولكن فاسيلييف ظل يصيح:

– المهم في القضيّة النفط والشحم. وأنت أيضاً يا يعقوب متّهم، لذلك فأنا ألقي عليك القبض. إنّك حارس مسؤول...

فجأةً قفز سيمون قفزةً فكان وراء العجوز، وكال له ضربة على قفاه بكل قواه، فخرّ العجوز ولم يقل: آه. وقبضوا على سيمون وأوثقوه بالحبال وصنعوا بي وبميكيفتش كما صنعوا به، وألقونا في غيابة قاطرة من قاطرات الدرجة الثالثة تحت حراسة رجال يتنزّهون تحت النوافذ وبأيديهم هراواتهم.

وبكى ميكيفتش، ونشج نشيجاً ثمّ نام. ووشوشت في أذن سيمون:

– ولِمَ فعلتها يا أبله؟

ولم يرغب في الكلام وجعل ينتحب، ثمّ قهرته وهاهو ذا يسرّ إليّ أن قد دفعته جماعة من الحزب، لأنّ كيريانكو وشى بأسماء الذين يزورونني. وطمأنت الفتى، لأنّ لي ضلعاً في القضيّة، وأقنعته بضرورة الكتمان.

في ذلك العهد كان القضاة قساة كما كانت الحياة: دبّروا أمركم وهاتوا لنا مجرماً. المهم أن تأتوا به. وحُكِمَ على الفتى بالموت شنقاً، رغم أنّي أصررت على تأكيد براءته وعلى أنّي رأيته عند الصهريج، ولكنّ الضابط المحقق ردّني وهو يقول:

– لقد أجمع الناس على أنّ هذا الحارس نصف مجنون، نحن لا نستطيع أن نثق بما يقول.

ولم يحاكم ميكيفتش، وأطلقوا سراحه، وأطلقوني، فتعجّب أصدقائي وقالوا:

– إنك لتتغابى تغابياً ظنّنا أنّه سيقود إلى سحقك. وطُرِدْتُ من المحطّة طبعاً ورحت بعدها أطوف في البلاد وأعيش كما يعيش النوري: فأنا طوراً في الأورال وطوراً على ضفاف الفولغا، ومرّتين في موسكو، ومرّة في ريازن، وآونةً أبحر في نهر أوكا نوتياً على ظهر مركب، ورأيت فيما رأيت تلك «السافاتما» المشهورة: بلد صغير لا يسوى شروى نقير.

عشت ولاحظت، ولكنّ نفسي بقيت قلقة ترتقب في عناد وإصرار شيئاً ما لابدّ أن يحدث.

وكنت ذات شتاء حوذيّاً في ريازن، وفجأةً شعرت أنّي أهوي في الفراغ. لقد رأيت راهبةً: إنّها ليوبا.

أوقفت حصاني وصرخت: ليوبا... ليوبا!

ولكن لا... ليست هذه الراهبة ليوبا، وكأنّما قُذِفَ بي في ماءٍ يغلي.. ليس بينهما وجه من الشبه: وجه هذه الراهبة خرقة بالية، وعيناها نائمتان.

وها أنذا بعد هذه الخيبة المريرة أصبح أكثر سأماً وأشدّ مللاً، وأطلب العودة إلى سيبيريا.

وجدتني في آخر الربيع في «تومسك» فيممت شطر المستشفى، وكان صاحبنا الدكتور الكسندر سيريللوفتش أوّل من لقيت، وسررت به على الرغم من أنّي لا أحبّ أبداً أن ألقى مرّةً أخرى الناس الذين عرفتهم من قبل. إنّ على وجوههم سيماء من يقول لك:

– إنك تدور ثم تدور في حلقة مفرغةٍ ثمّ تعود إلينا.

ورأيت الطبيب أبيض الشعر، أصفر الوجه، ذهبيَّ الأسنان، وفرح

بي، وضغط على يدي وهو يصافحني، وربت على كتفي كأنّي صديق حميم وقال لي وهو يمزح كالعادة:

– والآن أخبرني يا علبة المصارين، هل استطعت أن تقضي على كثير مما وجدت من أمور فوق العادة؟

وأعادني إلى عملي، وهاأنذا من جديد أدير عيادته! كان يسكن جناحاً صغيراً في المستشفى تُطِلُّ نوافذه على البستان، فيه غرفتان ومطبخ، وهاأنذا من جديد أعود فأقصّ عليه ما رأيت كما تقصّ الجدّة العجوز الأساطير على حفيدها. كنت وأنا أتكلم أصغي إلى كلامي: ألا إنّ هذا الأمر لذيذ.

ورأيتني فجأةً أفهم كلّ شيء. إنّ الأفكار الصحيحة لتأتيك بغتةً من حيث لا تنتظر، فإذا أنت على بصيرةٍ من أمرك. وقد حدث لي ذلك في أحد الملاعب، وكنت طالما زرته لأتفرّج على المتصارعين، ولقد أدهشني منهم مصارع من فنلندا. لم يكن كثير القوّة، ولم يكن ضخم الجسم، ومع ذلك فطالما صرع رجالاً أكثر منه قوّة وأثقل منه وزناً: كان ينتصر عليهم بمهارة غير عاديّة، وبدقّة فنيّة.

رأيته يوماً يدور حول مصارع روسيّ ضخم، وفجأةً فهمت وأنا أستيقظ من نوم عميق:

المعرفة: تلك هي البهتان المبين الذي يواري كلّ ما في الحياة من شرّ ومن باطل.

وتصبّبت عرقاً، وَقَفَّتْ عظامي، وهي تنتفض وترتجف. سرّ الروح، ومفتاح الحياة في هاتين الكلمتين:

«المعرفة شر».

إنّ الضعيف يغلب القويَّ بمعرفته، وإنّ الشعب يُحَرَمُ بالمعرفة من حرّيته، رأيتها في وضوح يُعْمِي البصر مصدر كلّ ما هو فوق العادة، ومبدأ كلّ ما يفرّق بين الناس، إذن فأمامنا أحد أمرين، إمّا أن يَعْرِفَ الناس جميعاً معرفةً متساويةً، وإمّا أن يُحْرَمَ الناس جميعاً من المعرفة.

لا أزال أذكر أنّي دخلت البيت بعد هذا الكشف، وأنا في حذرٍ حتّى كأنّي أحمل فوق رأسي سلّةً من بيض، وفي نشوةٍ غامرةٍ حتّى كأنّي سكران.

ومن الناس الذين يزورون الدكتور جماعة كانت تتحدث في السياسة دون أن يؤذيها وجودي، وكنت بذلك فخوراً. ومن هؤلاء الناس شيخ داهية أبيض ذو عوينات، أحدب الظهر، غليظ العنق، يدير رأسه وجسده معاً كالذئب، ويرنّ في صوته نباح الجوع والبرد، كان يَقْدُمُ من المحطة حاملاً حقيبة صغيرة، ويفرك يديه وجمجمته ولحيته ثم يناقش الناس الحساب:

- هيّا! كيف الأحوال؟

وها هو هذا يَقْدُمُ في ليلة من ليالي الصيف هو وحقيبته الصغيرة، مقدّداً مجفّفاً مدخّناً كأنّما قذف به الفرن من قريب، وها هو ذا يضع حقيبته على الأرض ويُحيّينا قائلاً:

- الحرب قريبة.

والحقّ أنّ حماقتنا الإنسانيّة قد انبعجت مرّة أخرى، وأنّا طبخنا الحرب من جديد، وبدأ النفير العام، وقُرِعَتِ الأجراس والنواقيس، وقال الناس للخراب أهلاً بك، وغمز الدكتور بعينه وقال لي:

- أرأيت يا علبة المصارين؟! هذه بساطة الحياة!

ولقد هدّني الأسى واستنزف قواي، ليس في الناس واحد يدرك أيّة فائدة في الحرب، ولكنّهم مع ذلك يحاربون. نعم إنّ العجوز قد بيّن للدكتور أنّ الحرب الجديدة منتهية حتماً إلى الثورة، ولكن هل تحمل إليّ هذه الثورة شيئاً من العزاء؟ لقد رأيت قبلها ثورة أخرى ملأت الأرض مآسي ومجازر، ولكنّها لم تحمل إلينا بارقة خير، بل إنّها حملت إلينا على عكس ذلك كثيراً من الشر.

وَدُعِيَ الدكتور إلى الخدمة العسكريّة، وقد صعقته هذه الحرب كما صعقتني، وقال للذئب العجوز:

- لو أطلقت على رأسي رصاصة كان ذلك أشرف لي.

والعجوز يردّد قوله:

- الهزيمة واقعة حتماً بعد ثلاثة أشهر، والثورة واقعة حتماً بعد الهزيمة.

لا أريد أن أحدّثك عن تلك الحرب: خليط بابلي، غليان جنوني، الفلاحون في سيبيريا يُساقُون إلى روسيا ألوفاً ألوفاً، ويحلّ محلّهم ألوف وألوف من أمم وشعوب أعرف أنا بعضها كالتشيك والمجر والألمان، ويعرف الشيطان سائرها، خليط بابلي، وطواعين وأنين، وبرك من الدماء، ونساء كالوحوش، وأنا والحقّ أقول لك، خائف من هذا الهول كلّه.

كان الطبيب ينتقل من مدينة إلى مدينة، ومن معسكر إلى معسكر، ليعنى بالأسرى، وعلى رغم إعفائه لي من العمل لم أجرؤ على تركه. كان إنساناً كاملاً، لا ينام الليل، ولا يجد وقتاً للطعام، وعجبت لأمره: ما له

يبذل كلّ هذا الجهد، ويعاني كلّ هذا القلق؟ أيُّ خيرٍ جلب لـه النـاس؟ ولِمَ يعنىٰ بهم كلّ هذه العناية؟ وهم فوق ذلك أجانـب وغربـاء لا تربطـه بهـم وشيجة قرابة ولا نسب. إنّه لا ينتظر ترفيعاً ولا يطلـب وسـاماً، ورؤسـاؤه يمزقونه إرباً إرباً. وإليك الآن حادثاً من حوادثه:

جاء الجند بعددٍ من الأسرىٰ فألقوا بهم في زاوية ثمّ نسوهم، وأتانـا المشرف عليهم يشكو موت رجالـه بـرداً وجوعـاً، وأمـر الـدكتور حُـرَّاسَ المحطة أن يفصلوا من أوّل قطار شاحنتين تحملان دقيقاً وخشباً ثمّ وزّع مـا فيهما على الأسرىٰ، وأُحِيْلَ إلىٰ المحاكمة، وأُجِّـلَ الحكـم إلىٰ نهايـة الحـرب: كان يخرق القوانين في غضبٍ حرصاً علىٰ العناية بالناس.

لقيت تاتانيا في بلدة «تـومين»، كانـت تحـوم حـول الأسرىٰ، تـأتزر ثياب ممرضات الصليب الأحمر، وعلىٰ أنفهـا عوينـات سـود، لقـد سـمنت وأصلحت من هندامها، وقالت لي أنّها تعلّمت مهنة الممرضة قبل الحرب.

وسخر الدكتور طبعاً من رأيي الجديد في المعرفة كما سـخر مـن قبـل من رأيي في البساطة، وكان يقول:

– المعرفة! أليس كذلك يا يعقوب؟ أترىٰ أثراً لبساطة الحيـاة؟ أتـرىٰ لها أثراً؟

والواقع أنّي في ذلك العهد قد تزلزلت أفكاري، وغطىٰ القتام عقـلي، وكأنّ هذه الرحىٰ الشيطانية همّت أن تقف عن الطحن.

وكنّا في محطّةٍ علىٰ طريـق «توبولـسك» فوصـلَتْ إلىٰ الطبيـب برقيّـة قرأها ثمّ فركها وأصبح ممتقع اللون، وقال لي وهو يدغدغ حنجرته:

– يا يعقوب خُلِعَ القيصر عن العرش.

وهزّني هذا الخبر هزّاً: لم أفكر في القيصر تفكيراً جديّاً. نعم لقد رددت كثيراً أن الشرّ كلّه في القيصر، ولكنّي لم أكن مؤمناً بما أقول، بل لقد كنت أرى الشرَّ في كلّ مكان، وها أنذا أسأل نفسي:

- هل كان القيصر حقاً قائماً على رأس كلّ سلطة في الدولة؟!

إذا كان ذلك كذلك فهذا الرأس قد قُطِعَ.

اضطرب الدكتور، وكاد مساعده أوكونيف يرقص، ورأيت الناس جميعاً يبتهجون ويفرحون، أترانا وصلنا إلى غايتنا؟ أترانا تحرّرنا من قيودنا؟

نعم لقد كان ذلك حقاً، ها هو ذا الشعب يلتفّ على نفسه كما يتكوّر القنفذ، ويلتصق بالأرض كما يلتصق الفتى الشَّبِقُ بالفتاة، ورأيته لا يريد أن تتكرّر المأساة التي حدثت منذ عشر سنوات، كلا! ثمّ كلا!

الرجال يهربون من جبهة القتال دون أن يفقدوا صوابهم، بل هم على عكس ذلك ينصرفون في نظام وقد حملوا بنادقهم بل ورشاشاتهم ومعدّاتهم. كانوا قبل كلّ شيء يفهمون ما يقوله الناس ويرددون:

- نعم... نعم... إنّ هذا لهو الحقّ المبين، كفانا ما لقينا من هوان، لقد طفح الكيل.

أما أنا فقد تكلّمت في تلك السنة وحدها أكثر ممّا تكلّمت خلال ثلاثٍ وأربعينَ سنةً كاملةً. كان في صدري جرس يرنّ ثمّ لا ينقطع عن الرنين. وشعرت بالفرحة الكبرى تغمر تلك السنة الخالدة، ورأيت الناس يُعْجَبُون بي ويجلّونني إجلالاً كبيراً.

المسافات في سيبيريا شاسعةٌ واسعة، والقرى متفرقةٌ متباعدة، ليست

كما ترى في هذه البلاد حيث تدفع القريةُ القريةَ بمرفقها دفعاً، وتغصّ بالشوارع والطرق، وحيث تجد في كلّ عشرة فراسخ بلدة، وفي كلّ مئة مدينة.

وفارقت الدكتور فقد أرسلوه إلى «اركوتسك» وعشت في ضيعة قريبة من «نيقولايفسك».

وفجأةً داهمتْ الضيعة كوكبة من الفرسان، وجعلت تصدر الأوامر:

– هيّا إلى الحرب... هيّا إلى الحرب...

ولكن من نحارب؟ ولماذا نحارب؟

وقال ضابط ذو شعر جعد، وجبهة عريضة:

– نحارب موسكو، لقد استولى أُجَراءَ الألمان على الحكم فيها.

وحدّثنا حديثاً طويلاً يدلّ على ذكاءٍ وإدراك، ولكنّ الفلاحين تردّدوا في تصديقه، وفي سيبيريا لا يحب الناس موسكو.

وقد تشكّى الفلاحون وتململوا قليلاً ثم سافروا.

ومع ذلك فقد استطعت أن أقنع عشرين منهم بالبقاء، وقلت لهم:

– هذه حرب لا نفهم لها مغزى، ولا نعرف من أوقد نارها. تعالَوا نهرب إلى الغابات أيّها الفتيان، وننتظر هناك، حتى تتبين لنا جبهة السادة وجبهة الشعب.

وجاء فتيان من أقصى المدينة يَسْعَيَان، كأنّهما هبطا من الغيوم، ويقولان:

– إنّ هذه الحرب التي تدعون إليها حرب على الشعب، إنّكم تُسَاقُونَ إلى حفر قبوركم بأيديكم. لَم تمت الأفعى فهي الآن ترفع رأسها.

أيّدوا موسكو أيّها الفلاحـون، إنَّ أولي الأمـر فيهـا هـم أصـحاب التفكـير الشريف الصحيح.

سيروا وراء البلاشفة، واضربـوا قفـا الـسادة المستبدّين. ذلـك هـو واجبكم.

كان حديثهما ممتازاً، وفرح بي الفلاحون لأنّي قلت لهم ما قالـه هـذان الفَتَيَان، وفكّرت كما فكّرا، وقالوا لي:

- إنّ رأسـك نافع لنا فابق عندنا.

وجعل الكولتشاك يحصدون القرى والفلاحين حصداً: المصادرات والنهب، وسرقة الحبوب والعلف، وسوق البهائم والماشية، وترامى إلينا أنَّ الفلاحون قد هبّوا يدافعون عن أموالهم وأنفسهم، وأنَّ العمال يؤيّـدونهم في هذا الدفاع.

وجاءتنا فصيلة مـن العـمال لا يتجـاوز عـددها تـسعة فرسـان عـلى رأسهم سائق يدعى «افكوف» وكان شاباً أسـود جـاف العـود طـويلاً، إذا امتطى صهوة حصانه مسّت الأرض رجلاه، وطلبوا منّا تأييدهم في حـرب الناهبين وهم أربعون فارسـاً ينهبـون قريـة لا تبعـد عنـا أكثـر مـن ثلاثـين فرسخاً. وهبّ سكان القرية وهم الذين طالما لقوا أصناف النهب والـسلب فجمعوا سبعة وستين مسلّحاً أكثـرهم مـن الجنـود القـدماء وفـيهم بعـض الشيوخ ومضوا إلى القتال، ولم يعجبني هذا الأمر، ومع ذلـك فقـد تنكّبـتُ بندقيتي وسرت...

بلغنا القرية عند منبلج الـصباح، وخـضنا المعركـة: لم تكـن معركـة دامية، فقد قتلنا ثلاثة وجرحنا خمسة أو ستة، وفقـدنا نحـن قتـيلاً واحـداً،

ووقع آخر منّا في بئر فَغَرِقَ، ومسّ الرصاص أربعةً منّا مسّاً غير ذي خطرٍ، وكنت واحداً من هؤلاء فقد اخترقت الرصاصة لحم كتفي.

كنت لا أعرف الرماية، ولا أستخدم البندقيّة بل أنا لم أصطد في حياتي عصفوراً، ولكنّي مع ذلك فعلت كما يفعل الآخرون. والحقّ أنّ البندقيّة آلة عجيبة: خذها ثمّ صوّبها تنطلق وحدها.

وملأ النصر الفلاحين تيهاً وفخراً، وعادوا إلى قريتهم يصمّون آذان البريّة هزجاً وغناءً، ولكنّا لم نكد نبلغ القرية حتى رأينا فيها جماعةً من الكولتشاك يعبثون بها ويرتعون، ورأينا النار تُضْرَمُ في موضعين من القرية، وسمعنا ولولة النساء وعويل الأطفال. وعندئذ ظهر لنا «افكوف» محارباً ماهراً: قسّمنا فريقين ثمّ حاصر القرية، وهبطنا على العدوّ على حين غرّة، وكانت معركة دامية: أمّا القتلى فكانوا سبعة وثلاثين، منّا ومنهم، وغنمنا مدفعاً ورشاشين وكميةً من الذخائر من كلّ نوع، وانضمّ إلينا من الكولتشاك أحدَ عشرَ فارساً. وأجمعنا أمرنا على الانسحاب إلى الغابات والاستعداد للحرب، ومضينا إليها ونحن سبعةٌ وخمسون فعشنا في الهواء الطلق، وذبحنا الناس، وغنينا الأغاني.

لكلّ نمط من أنماط الحياة عيوبه، وهكذا كانت حياتنا. لقد أَلِفْنا العيش المتشرّد في الغابات والبراري، وأصبحنا كسالى. كنّا نلبس ثياباً بالية ملأى بالثقوب، ولكنّا لم نرغب في ترقيعها أبداً، فإذا لم يبق سبيل إلى لبسها غنمنا ثياب ميّت، ولكنّ الميّت نفسه لم يكن يرتدي ثياب السادة.

لم أكن محارباً، ومع ذلك فقد غامرت. كنت أتعلّم الرماية وفنون

الحرب في كثير من الشوق واللهفة، وأنا أعلم أنَّ الحرب عملٌ بهيميٌّ باهظ الثمن. المهم في الحرب إطلاق أكبر كميّة ممكنة من الرصاص. مئات من الطلقات في سبيل عشرة قتلى، والذين يبقون أحياءً يولّون الأدبار. والحرب فوق ذلك عملٌ مؤذٍ لأنّها تفسخ أخلاق الرجال.

كان في فصيلنا فتىً يدعى «بيير» أفسدته الحرب وشوّهته، كان إذا وقع في قبضتنا بعض الأسرى مايزال يزعجنا حتى نقضي عليهم. كان يطلب من «افكوف» أن يسمح له برميهم، فتلتمع عيناه الصغيرتان، ويحمرّ وجهه. كان ظريف الملامح، حلو المظهر، وكان افكوف يمنعه من قتل الأسرى، ولكنّه كان يقتلهم ويبرر عمله قائلاً:

– لم أتعمّد قتلهم أبداً.

أو يقول:

– رأيته جريحاً، لا مفرّ من موته.

أمّا افكوف قائدنا فكان سوداويُّ المزاج، متوقّد الذكاء، يحبّ البحر فقد كان نوتيّاً على ظهر مركب حربي، ثمّ نُفِيَ فاشتغل ملّاحاً في نهر «آمور». كان شجاعاً ولكنّ شجاعته كما عرفنا بعد ذلك راجعةً إلى جهله بفنون الحرب. كان يمضي إلى المعركة ممتطياً صهوة جواده أمام الجنود جميعاً يهزّ بندقيته كما يهزّ الفارس رمحه، ثمّ يكيل الشتائم المخيفة والرصاص ينهال عليه من كلّ جانب. ولم يكن يشفق على الناس:

– الشرفاء من الناس يسكنون البحر، أمّا الأوغاد وحدهم فيسكنون البرّ.

كان كثير الصمت، كثير الأنين، مصاباً بوجع في ظهره لعلّه من أثر

ما لَقِيَ في سجنه من ضرب وعذاب. كنّا إذا غنمنا الأسرىٰ أرسلهم إليّ وقال لي:

– يا صاحبي جازيف – كنياجيف أقنعهم بالانضمام إلينا فإذا رفضوا فهدّدهم بالقتل.

وَظَفِرَتْ مرّة طليعة من طلائع الاستكشاف بخمسة فرسان، ناقشني واحد منهم، كان جريح الرأس والذراع، نقاشاً أعجبني وَعَلِمْتُ أنّه ليس من غمار الناس فسألته:

– أوأنت سيّد؟

واعترف أنّه ضابط برتبة ملازم، وأنَ أباه علاوةً علىٰ ذلك خوري، وقلت له:

– سيقتلونك.

كان متعجرفاً، قويَّ البنيان، جدّيّ التعابير، مفعماً بالقوة، دافع عن نفسه عند أسره دفاعاً مجيداً، أمّا نظرته فكانت نافذةً طيّبةً علىٰ الرغم ممّا فيها من أسىً عميق. وأجابني:

– نعم... يجب عليهم أن يقتلوني. هكذا الحرب: لا رحمةً ولا شفقةً.

وأشفقت عليه وحدّثته طويلاً، وأصررت علىٰ إقناعه بالانضمام إلينا، أمّا هو فكان لا يكفّ عن شتمنا عامّة وعن شتم قائدنا افكوك خاصّة، وعَلِمْنا أنّه أُوْفِدَ في مهمّةٍ هي القبض علىٰ افكوف وعصابته.

قال لي:

– إنّ قائدكم غبي وسيقضي عليكم جميعاً.

وكان يعرف كيف يثبت بالأرقام أنَّ افكوف لا يعرف توفير رجاله،

ومسائل أخرى كثيرة، وأدركت رأساً أنّه مصيب وأنّ افكوف محارب أخرق.

لم يكن هذا الضابط، واسمه اوسبانسكي كوتيرسكي، يهمّه أحد من الناس، كان على شاكلة صاحبنا بيير، المهم عنده أن يقاتل. وقلت له مازحاً:

– إذا كنت تريد أن تحارب، فهيّا بنا وحارب جماعتك. وحكّ حاجبه وسكت، وحدّثت عنه افكوف وأطريته وقلت له إنّه فتى باسل فتمتم افكوف:

– ولكن كيف نأمن أمثاله؟

وقلت له: ولكنّا غير مدربين.

– هذا حقّ، فنحن أولو قوّة، ولسنا أولي معرفة. حدّثه أيضاً فما يزال أمامنا متّسعٌ من الوقت لرميه.

وغمرت عطوفة السيد كوتيرسكي بالخمر وبالشاي، وأنا أقول له:

– إنّ الحقّ معنا.. أمّا هو فيدمدم:

– الشيطان وحده يعرف أين الحق، قد يكون معكم ولكنّ الذي أعرفه أنّه ليس معنا.

وخلاصة القول أنّ كوتيرسكي قبل أن يكون مساعد افكوف، وإذا أردنا استعمال التعابير العسكريّة قلنا أنّه: رئيس أركان حربه. ولقد بدا لنا سيّداً حقيقياً، وجعل يقوم بتمريننا تمريناً جيداً ويقودنا قيادةً حازمةً، وكم مرّة لُمْتُ نفسي بعد ذلك لأنّي حِلْتُ دون رميه بالرصاص. وجعل أصحابنا يتذمرون، ولكنّنا ظفرنا مراراً وتعلمنا حِيَلاً، وفهمنا أنّ هذا الضابط عملاق!

كان لا يتقدم الصفوف، ولا يبدي بسالة ما، كان ينتصر بحيلة الثعلب، في رفق، ويتسرّب كما تتسرّب الأفعى في لين، ويوفر رجاله توفيراً مُجْدِياً، لا في المعركة وحدها، بل في فترات الراحة. وكان يفتّش حتى الأقدام ويراقب وسخها، ويأمرنا بالسباحة دائماً، ويعلّمنا الرماية الصائبة، ويرسل طلائع استكشاف، حقاً لقد كان لعنةً دامغةً، لا يترك لنا لحظةً من هدوء.

وقال لنا يوماً:

– من وجدت في ثيابه قملاً جلدته.

وأطراه الجنود الشيوخ إطراءً رائعاً، ولم يحبّه الشباب.

لم نكن نتجاوز سبعة وستين مسلّحاً، ومع ذلك فقد استطاع بهذا العدد أن يقودنا إلى أعمال لا تزال تصعقنا بما فيها من مهارة، وما أدركنا بها من نجاح.

كان بادئ ذي بدءٍ يُكْثِرُ من التحدّث إليّ، ولكنّه سرعان ما تركني، كان غير قادر على الفهم، فالفهم ليس من طبعه، وكان يكره الأجانب كالبولونيين والتشيك والألمان، ولكنّه كان يشفق على الروس إشفاقاً كبيراً، وكان قاسياً: يحكّ حاجبيه ويكشّر عن أنيابه: والسلام على الأسرى.

وأصبح قائدنا بعد مَقْتَلِ افكوف. كان افكوف وبيير وجندي ياباني يسبحون في نهر قرب معسكرنا عندما هاجم المعسكر عشرة ضباط. وسمع افكوف دويّ الرصاص، فهرع إلينا عوضاً عن أن يختفي في السياج، وكان الضبّاط يهربون في اتجاهه، فقتله واحد منهم، وكسر آخر رأس بيير فمات، وأعترف أني لم آسف عليه فطالما أزعجنا فساده.

ولا أزال أرى افكوف حتّى اليوم، كما رأيته يوم قُتِلَ، ممدّداً على

العشب، طويلاً يبلغ مترين، متصالب الذراعين، يُخَيَّلُ إليك أنه يريد أن يطير، ليس عليه غير قميصه وإلى جانبه خنجره ومسدّسه. ولقد آلمنا قتله جميعاً، وركع كوتيرسكي إلى جانبه وزرّر جيب قميصه، وبقي راكعاً زمناً طويلاً ثم نهض واقفاً يرثيه ويقول:

- إنّك لشهيد عظيم من شهداء الحقّ، ولقد كنت بطلاً...

* * *

ومضت أيامنا نحن المحاربين على هذه الوتيرة، وذكر لنا الأسرى أنّ الكولتشاك يبحثون عنّا ويطاردوننا فقد أزعجناهم كثيراً، ومضى بنا كوتيرسكي، وهو الذي يعرف كيف يحصل على المعلومات، إلى ضواحي «نوفونيقولايفسك» وكانت لنا في الطريق مقابلة مزعجة: عثرنا على قافلة، وغنمنا تسعةً وعشرينَ حصاناً، وخمس عجلات صحية، وتسعة أسرى كانوا مثلنا من الأنصار. ورأيت في إحدى العجلات صاحبنا الدكتور الكسندر سيريللوفتش مضطجعاً، ورأيت بين الأسرى صاحبي البحار في «تشيتا»، ولم أعرفه إلا بإصبعه السادسة الزائدة. أمّا الدكتور فلم أستطع قطّ معرفته، بل هو الذي عرفني فناداني:

- أين أنت يا علبة المصارين؟

وتطلّعت فوجدت رجلاً عجوزاً يتمدّد على الأرض، متورّماً، أصلع الرأس، أبيض اللحية، جامد العينين، غير مازح، وأمرني أن آتيه بتبغ وهو يدمدم:

- هذا ثالث أيام ثلاثة لم أدخن فيها، لعنك الله...

وسألني وهو يشعل لفافته:

- أأنت تبسّط الحياة؟

ورأيته رغم أنّه طبيب، قصير العمر، لا يكاد يستطيع الكلام. وسألني النوتيّ عن تاتانيا، وهل أذكرها، وأخبرني أنّها متواريةً عن الأنظار في «نيقولايفسك» وأنّه في حاجةٍ إليها من أجل بعض القضايا، وأقنع كوتيرسكي بإرسال من يبحث عنها، وبعد يومين وصلت إلينا في عجلةٍ، واستقبلتني في سرور قائلة:

- أأنت بلشفي؟

وقلت لها: نعم... طبعاً.

ومع ذلك فلم أكن كثير الثقة بالبلاشفة. وجمعت تاتانيا أصحابنا، وألقت عليهم خطاباً جاء فيه قولها: إنّ أمور الكولتشاك مضطربة، وإنّ علينا أن نضربهم ضربة عزيز مقتدر، لنفرغ إلى حياة السلم وتنظيم المجتمع.

كانت تصرخ، وتحرك ذراعيها، ويختلج خدّ من خدّيها وتلمع عويناتها، ورأيتها عجوزاً يابسة قاتمة الوجه، جائعة ينبح صوتها نباحاً، وصفوة القتل لقد رأيتها مزعجة.

وقالت لي عند المساء: إنّها كانت منذ أمد بعيد عضواً في الحزب، وأنّها سُجنت مرّتين، وأنّها لم تعرف النوتي إلّا منذ أشهر ثلاثة عندما كان جريحاً في المستشفى، ولكن هذا كله لم يكن ممّا يعنيني، ثمّ سألتني:

- أتعلم أن مولاك الطبيب قد انضم إلى الكولتشاك؟

وقلت لها عندئذ:

– ولكن ها هو ذا الطبيب!

واختلجت اختلاجاً، يا للخسارة، نحن لا نرى حركة عينها من وراء العوينات، ويحها إنّها لم تنسَ ولا يمكن أن تنسى أنّ الطبيب ردّها مدحورةً يوم داعبته، لقد كنت أعرف ذلك ولكنّي الآن بلغت حدّ اليقين.

وسخرت منها وهي تؤكّد لي أنّ الطبيب عدو لدود، ومضيت إليه أقول:

– هنا تاتانيا.

وبلل شاربيه بلسانه ودمدم:

– أصحيح؟

لم يقل غير هذه الكلمة، وسهرت إلى جانبه طوال تلك الليلة، وأنا أتساءل: أتراها تقاربه؟ أتراهما يتحدّثان؟

ولكن لا... ها هي ذي تسير مجانبة له، وتحرّك قضيباً في يدها، ومضت مرّة إلى النوتي فقالت له كلمة ثمّ عادت إلى السير كأنّها حارس ليل.

دنوت من الطبيب مرّتين، فَخُيِّل إليَّ أنّه نائم، وكلّمته فلم يرد عليّ، وتردّدت في إيقاظه، فقد كنت أريد أن أقول له شيئاً. وبدا لي وجهه في ضوء القمر أحمر ساخناً، ونحن نعلم أنّ وجوه الأصحاء من الناس تبدو في هذا الضوء زرقاً شاحبة.

وانتصف الليل فهيّأنا متاعنا للسفر، وسألت كوتيرسكي:

– ماذا نفعل بالأسرى؟

كانوا ستة: ضابط بولوني، وثلاثة جنود جرحى، وامرأة يهوديّة،

وصاحبنا الطبيب، وكانت المرأة تُحْتَضَرُ وعيونها غائرة، وصرخ كوتيرسكي:

– وماذا تريد أن نصنع؟

واقترح الجماعة الإجهاز عليهم جميعاً، وغمز كوتيرسكي أنف حصانه وقال:

– استعدّوا!

ولكنني أقنعتهم بوضع المرضى على ضفّة النهر وتركهم هناك، فقبلوا وأُعْدِمَ الضابط طبعاً، أمّا الدكتور فأجهد نفسه يمازحني وهو يودّعني وقال:

– كان عليك أن تجعلني بسيطاً يا علبة المصارين.

وأجبته:

– ستموت عمّا قليل وحدك يا ألكسندر سيريللفتش.

وتركته وأنا عليه مشفق حزين، طالما أثّر في نفسي تواضعه وبساطته.

وقتله جندي يلقب بالياباني وصياد دببة، تركناهما في المؤخّرة دون أن نشعر بهما، وما لبث الياباني أن لحق بنا وقال لي:

– لقد أجهزت على دكتورك، أنا لا أحبّ الأطباء.

بل لقد أجهزا على المرضى جميعاً بضربات العصيّ حتى لا يُسْمَع لهما صوت، وزجرتهما وشتمتهما قليلاً، فأخجلني كوتيرسكي، وهو يقول لي:

– ما عسانا نفعل لو رآهم العدوّ أحياءً؟

وساءلت نفسي: أليست تاتانيا هي التي دفعت الياباني إلى القضاء على الطبيب؟ ها هو ذا لا يملك لفافة تبغ، وإذا به بعد قليل يدخّن فيطيل التدخين، وعرفت أنّها لفائف صاحب تاتانيا البحار.

أتكون قد أمرت بقتله رأفةً به كيلا يتألم؟ ربما، فقد يحدث أن يُقْتَل المرء رأفةً وحناناً.

ألا ترىٰ أنّي رجل رؤوف رفيق، ومع ذلك فقد قتلت بيديّ هاتين رجلاً عجوزاً مسكيناً لا يملك دفاعاً عن نفسه، أمّا أنا فلم أقتله رأفةً به، بل قتلته لسبب آخر.

قلت لك: إنّي لا أحبّ الشيوخ، وإنّي أراهم مفسدين مضرّين، وطالما قلت للفتيان منّا:

- لا ترحموا الشيوخ أبداً. إنّ وَهْنَ عظامهم وتمسّكهم بآرائهم يجعلانهم غير نافعين. إنّ الشابّ يتغير، ولكن الشيوخ لا يتغيرون، وسرعان ما يحتقرون من يخالفهم، فهم يُعْجَبُونَ بأنفسهم، وتراهم جميعاً يتّفقون علىٰ نمط واحد من التفكير:

«أنا شيخ؟ إذن فأنا علىٰ صواب».

إنّهم رجال الأمس الذاهب، وإنّهم ليجزعون من الغد الآتي، ذلك أنّ هذا الغد لا يحمل إليهم غير الموت.

وكنت ألقي علىٰ فتياننا درساً آخر في تدبير المنزل:

أمّا الأثاث الضخم، مثل المرايا، والصناديق، والسُّرُرّ، فلا تكسروه أبداً، ولا تحطّموه، ولكن حطّموا كلّ ما هو تافه حقير، وأحيلوا كلّ ما هو باطل صغير إلىٰ تراب، فمصدر شقائنا ترّهاتنا.

أجل لقد لقيت مرّةً شيخاً ضئيلاً سامّاً كالأفعىٰ. أصبت بتيفوس فتركني رفاقي في قرية صغيرة عند فلاح صالح، وظللت طريح الفراش طوال الشتاء، وأنا مريض، وفقدت ذاكرتي، وعندما ثُبْتُ إلىٰ رشدي لم أفهم

ممّا حولي شيئاً، كأنّي نائم منذ سنين، وسمعت الفلاحين يزمجرون، ويشتمون موسكو ويكيلون السّباب للبولشفيك، ماذا حدث؟ ولاحظت شيئاً ذا قلنسوة يضرب في القرية، ويتوكّأ على عصاه. كان عجوزاً ضئيل الجسم، كثير النشاط، صغير العينين، تضطربان كما تضطرب الخنافس في الضياء، نعم إن هنالك خنافس حقيقية لها أجنحة يُخَيَّل إليك أنّها من حديد. وكان يلبس كما يلبس الناس جميعاً، ولكنّهم كانوا يرمقونه ويحترمونه.

وجاء الربيع، وبدأتُ أسير وأرى، لقد أصبح الناس غير الناس، غرباء عابسين غضاباً، ولم أرَ واحداً منهم تبدو عليه مظاهر الهمّة والنشاط، وسمعتهم يشكون المصادرات والمفوّضين، وجعلت أحدّثهم وأشرح لهم الأمور رغم أنّي لم أكن أفهمها على حقيقتها.

وكنت جالساً ذاتَ يومٍ وراءَ القرية عند المرعى، ورأيت هذا العجوز يتدحرج على الطريق، ويذرع الأرض بعصاه، ورآني فأعرض بوجهه عني، ويصق، فغضبت وسألت صاحب مثواي:

– من هذا؟

– رجل صالح وذكي، يرى خداع الناس حراماً.

وحدثني في كراهيّة وضيق.

وسألت شاباً من مُشَوَّهِي الحرب يدعى «نيقولا راسكانوف» قُطِعَت رجله وأصابع يده، عن أمر هذا الشيخ فقال لي:

– إنّه عجوز مضرٌّ، يقطن القرية من زمن بعيد، وهو منفيّ سياسي، كان يملك خلايا نحل ثمّ ذهبت الخلايا فبنى كوخاً في الغابة، وهو يعيش فيه الآن عيشة الراهب، ويقدّ الملاعق ويتّخذ سيماء القدّيس.

ولم تكد الثورة تنشب حتى قَرَعَ لها طبول الحرب، وزادت نقمته حين صُوِّدِرَتْ خلاياه، إنّ المنطقة تعرفه ويقصده الناس من بعيد، من مئات الفراسخ، فيستمعون إلى نصائحه وهو يقول لهم: إنّ اللصوص والكفار هم الذين يسيطرون على موسكو، ويقول لهم غير ذلك، ويدعوهم إلى المقاومة والعصيان.

وحدثني عنه فقال:

– عاد جنديان من الجيش الأحمر إلى أهلهما في قرية من القرى، واجتمع الشيوخ فقال بعض لبعض:

«إنّ هذين الفتيين من الأشقياء، أمّا أحدهما فقد قَتَل رفاقه أباه وأمّه، وأمّا الآخر فقد أحرقوا بيت أهله ونهبوه وتركوا والديه بائسين. لو تركناهما أفسدا علينا أبناءنا. فلنقتلهما ليعرف أبناؤنا أنّ عهد الفوضى قد انقضى».

وشَدُّوا وثاق الحمامتين، ووضعوا رأسيهما على جذع شجرة، وقطعوهما بالفأس.

كان العجوز يسكن على بعد عشرة فراسخ من القرية، فوق رابيةٍ قائمةٍ على كتف الغابة، في كوخ صغير ذي نافذة واحدة، وحوله حقل صغير، فيه ثلاث خلايا، وكُلَيْبٌ أشعث. تلك هي ثروته.

كان النهار لا يزال منيراً حين دخلتُ عليه بيته، ورأيت العجوز جالساً فوق جرثومة شجرةٍ قرب النار، وفوق النار قِدْرٌ تغلي وتضطرب في جوفها قطع من خشب، وجعل يقدّ الملاعق ولا ينظر إليّ، كان يرتدي ثوباً من قنّب، أزرقَ، حافيَ القدمين، تلمع صلعته، وتنتصب فوق أذنه اليمنى بثرةٌ كأنّها هي جنين رأس آخر، ولقد أزعجتني هذه البثرة الصغيرة على الخصوص.

قلت له: جئتك أتحدّث إليك.

- قل.

سكت، وجعل يدير سكّينه في سرعة أطارت قطع الخشب على ركبته وقدميه، وكانت هذه القطع رطبةً لا تُحدِثُ صوتاً كأنّها قطع من السمن الجامد، والماء يغلي في القدر، والكلب يُعَوّي ويلتصق بالعجوز، ومع ذلك فقد شعرت أنّ كل ما حولنا ساكن صامت.

ثمّ سألته:

- علامَ تدعو الناس إلى العصيان؟ ما تعتقد؟ وما تريد؟

وظلّ صامتاً مطرق الرأس، لا يرفع عينيه، كأنّ ليس من أحدٍ أمامه، والخشب يتطاير، وهو أصمٌّ أبكم، والكلب المسكين أصبح كالمزمار من كثرة ما عوى، والعجوز لا يحاول أن يسكته، وبقي جالساً يعمل كأنّه ليس إلا يدين تتحركان وكتفاً تضطرب، وأمّا ما تبقى منه فتمثال من حجر أزرق.

كلّ شيء حول هذا الشيطان الأشمط هادئٌ وجميل، والغابة وراء الكوخ تفيض بالشذا والعطر، وأمامنا وادٍ ينحدر ليشرب من غدير جار، والشمس تلعب.

وفكرت في نفسي قائلاً: ما أحسن هذه الصومعة التي اخترتها لنفسك أيّها الساحر العجوز.

غضبت وأسرفت في إهانته وتهديده فلم أنل منه شيئاً، ولم ينبس، فغادرته كالأبله، وَتَلَفَّتُّ إلى الكوخ بعد أن فارقته، فرأيت النار تلمع وقلت:

- يا له من عجوز مضرّ.

وقال لي صاحب مثواي بعد يوم أو يومين، وهو مطرق الرأس إلى الأرض كأنّه ثور يهمّ أن ينطح:

- لقد شُفِيّت يا كيتيازيف، فَسِرّ إلى عملك.

وعَرَفْتُ سرّه: لقد حدّثه العجوز عن زيارتي، فأقبل يطردني، ورأيت امرأته وكنّتيه وخادمه، وهو ألماني، يرمقونني شزراً، ويغلظون لي في القول، وأصبح من في القرية كالثيران، وهم الذين كانوا يتطلّعون إلى حديثي في شوق ولهفة.

وقلت لنفسي:

- أنا وحيد، ودفني في قبر من تراب سهل هين، وليس من أحد يحزن عليّ، بل من ذا الذي يرثي اليوم لأحد؟ وجعل قلبي يغور.

وذهبت إلى راسكاتوف:

- دعني أختبئ عندك يومين أو ثلاثة أيام.

واستأذنت صاحب البيت بالسفر كما يليق، وأظهرت أنّي أغادر القرية عند مُنْبَلَجِ الصباح، وتواريت يوماً ويومين وثلاثة أيام في حمّاماته، فلما كان اليوم الرابع لبست ظلام الليل ومضيت في طريقي..

كان لي مسدّس فبعته لراسكاتوف، إنّ المسدّس أداةٌ خطرة على مسافر منفرد لأنّها تفضح نمط حياته، وهكذا جعلت من حجر مربوط في منديل سلاحي الوحيد.

بلغت منزل الشيخ فطرقت الباب، وأنا أظنّ أنّه يرى في زيارة الزائرين ليلاً أمراً عاديّاً، وأنّه لا يخاف، وشقّ الباب وقد وضع يده فوق

المزلاج، وسرعان ما وضعت رجلي في العتبة، ولقد أخطأت، فإنّ الشيخ فهم أنّي غريب، فدمدم وهو لم يكد يستيقظ:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

وأنشب الكلب أنيابه في ساقي، وعندئذٍ ضربت يد الشيخ بيدي وضربت فكّ الكلب بقدمي: وأنا أعلّمك: إذا أزعجك كلب فاضربه تحت حنكه من تحت إلى فوق، وأنا ضامنٌ لك أن تَفْصِلَ رأسه عن عموده الفقري بضربةٍ واحدة...

دخلت الكوخ وأغلقت الباب بالمزلاج، والعجوز يدمدم خائفاً:

- ما فعل لك الكلب؟

وأشعل الثقاب، كان عليّ أن أضربه في تلك اللحظة، ولكن ليس القتل سهلاً إلى هذا الحدّ ثمّ إنّي لم أكن أرى شيئاً، واشتعل المصباح، ولم ينظر الشيخ إليّ خوفاً أو تغافلاً، وكنت أنا خائفاً أيضاً، وساقاي تضطربان، وازداد خوفي حين نظر إليّ من جانب، ثمّ تراجع فجلس على مقعده معتمداً على مِرْفقيه، صامتاً توحي عيناه الكبيرتان الرحمة والحنان، والحقّ أنّي أشفقت عليه، والحقّ أنّي قلت له:

- والآن... لقد انتهت أيامك أيها العجوز.

ولم تُطِعْني يدي ولم ترتفع.

ولجلج في حديثه وتمتم:

- لست خائفاً... ولست على شيءٍ آسفاً.. ولكنّي أرثي للناس فلن يجدوا بعد موتي من يحمل إليهم السلوان.

- أهذا الخداع تسميه سلواناً؟ أتريد أن تصلي؟..

وركع على ركبتيه وعند ذلك ضربته، كان هذا مزعجاً حقاً، وأوجعني قلبي، واختلج جسدي، وشعرت أنّي وحش مفترس.

كدت أكسر المصباح وأحرق الكوخ، ولو حدث ذلك لهرع إلى النار رجال القرية وقبضوا عليّ في الغابة، وأنا الذي لا أعرف تلك البلاد، ولكنّي لم أفعل ذلك بل أغلقت الباب وسرت إلى الغابة، ولمّا طلعت الشمس كنت قد قطعت عشرين فرسخاً فنمت... ثمّ استيقظت فوجدت حولي عشرةً من جنود الجيش الأبيض ينظرون إليّ ويصرخون:

- جاسوس... إلى المشنقة.

وجعلوا يضربونني، فقلت لهم:

- علامَ تضربون؟ ولِمَ تصرخون؟ إنّ البلاشفة لا يبعدون عنا أكثر من فراسخ سبعة. تركتهم هناك في سفح هذا التل، وهم زهاء مائة وخمسين فارساً، لقد أرادوا أن أنضم إلى صفوفهم فولّيت الأدبار...

وخافوا وصدّقوني ثمّ سألوني:

- وما هذا الدم على قدميك؟

- وكيف لا يلطّخ الدم قدمي، وقد كسروا عندها جمجمة رجل بعصا؟

خدعتهم وأرعبتهم فساروا مسرعين وحملوني معهم، وأنفقت عليهم بضاعتي، بضاعة التغابي في الساعات الحرجة، وهي عادةً طالما أنقذتني.

ولم تكد ترتفع الشمس حتى كنت لهم مساوياً.

يا للناس، ما أغباهم حين تعرفهم: إنّهم بهائم في كلّ مظاهرهم: في مشاغلهم، وفي مباذلهم، في آثامهم وفي قداستهم.

ألم ترَ إلى ذلك العجوز؟.. ولكن كفانا حديثاً عنه... ولست أريد أن أذكره... ومع ذلك فأنا أقرر أنّه كان عجوزاً جلداً...

نعم إنّ الناس بهائم.. فعلامَ هذه الضجة وهذا البحران؟ إنّهم يطلبون أموراً فوق العادة... ويجهلون أنّ سلامتهم في البساطة.

أمّا أنا فقد لقيت ما كفاني من مثل هذه الخوارق، لو كنت لا أعرف كيف يجب أن أعيش، ولو كنت مؤمناً لسألت الله أن يخلقني قنفذاً أسعى في سراديب الأرض... أرأيت كم تألمت؟!

والآن، لقد انهار هذا البنيان الذي أقامه الشيطان منذ قرون، وها هو ذا يهوي خراباً يباباً، وأرجو أن يُنَظِّمَ الناس عن قريب أمورهم في سهولة وفي يسر: لقد فَطِنَ العالم كلّه إلى أنّ حكمة الحياة تعتمد على بساطتها، وأنّ علينا أن نكنس بعيداً وبعيداً جداً كلّ ما لنا من خصوصيات قاسية... إنّ الشيطان هو الذي اخترع ما فوق العادة ونصبه لنا فخاً لنقع في حبائله فريسة رخيصة...

أسمعتَ يا صديقي؟.

حكاية

- 1 -

عندما جسّ الطبيب الأشقر ذو الأنف الكبير، بأصابعه الباردة جسم بيكوف وصرّح جازماً أجشَّ الصوت، أن داء المريض أصبح خطراً لأنّه أهْمَلَ علاجه، شعر بيكوف بغيظ شديد يستولي على نفسه ويملأ قلبه، إنّه مثل ذلك الغيظ الذي كان يشعر به في أيّام شبابه إذا خاب أمله في ورقة يانصيب، أو مثل ذلك الغيظ الذي استبَدَّ به ذات ليلة من ليالي الحرب الروسيّة التركيّة، حين قضاها كلّها مختبئاً بين العوسج في بساتين «عين الفرجة» مكسور الساق، يغسله المطر الأسود، وينتزع الألم لحمه عن عظمه انتزاعاً بطيئاً.

- إذن فسأموت.

وجلس الطبيب وراءَ المنضدة يهمّ بالكتابة، ويجرّب قلمه الصدئ ويدندن بكلمات مبهمة، ولم ينظر إليه بيكوف ولا أصغى إلى قوله غيظاً وحقداً، بل تطلّع من النافذة إلى الشارع: الريح تكنس الأرض، وتطارد الريش والبراية والغبار.

- عمري تسع وأربعون سنة.

– لقد أسرفت في الشراب.

وشتم المريض الطبيب في سرّه وقال:

– هذا ليس بسبب، كثير من الناس يشربون ثمّ لا يموتون عبطة.

وثار عقله على الموت:

– انظر قليلاً: هذه دجاجة. إنّها تعيش وتبيض وتحضن بيضها حتى يفرخ، وأنت أنت أيّها الإنسان تموت!! لن يجديك تعبك في حياتك القاسية شيئاً.

وقام فشيّع الدكتور إلى الباب صامتاً ثمّ عاد خفيف النعل خفيف الثياب، ومرّ بالمرآة فتطلّع إلى وجهه فيها: وهذه المرآة مالها تعكس صورته في وضوح غير عادي: وجه نحيف تبدو عظامه، عينان خضراوان حزينتان، لحية طويلة وخطها الشيب تسقط شعراتها على صدره، ما أبشع هذا المنظر.

وتنهّد بيكوف ثمّ جلس على مقعدٍ جلدي قرب النافذة فنفخ وزفر وشعر في خاصرته اليمنى بألم حاد يثقب كبده في غير هوادة، ويُنْهِكُ قوى جسده، ويملأ نفسه ضغناً مريراً.

– أسرفت في الشراب... أسرفت في الشراب، وأنت أيّها الأبله ما تشرب؟ وبِمَ تتسلى؟

هكذا كانت صرخة بيكوف حين صعد الدكتور إلى العجلة.

ووقفتْ عند عتبة الباب امرأة بدينة، بليدة، هي الطاهية آجاش وقالت: هل آتيك بالسماور؟ فصرخ يشتمها:

– كم قلت لك يا ذات الشدق الأحمر: لا تضعي المقعد قرب

النافذة، أرأيت كيف تغيّر لونه؟ أتظنين أن الشمس لم تخلق إلا لإفساد الأثاث؟

وقالت آجاش في جرأة:

– أنت الذي غيّرت موضع المقعد.

وتذكّر بيكوف عندئذ مقدار ما بذل من جهد في جرّ المقعد الثقيل، فزادته هذه الذكرى مرفقة بهدوء العجوز غيظاً على غيظ.

– اغربي عن وجهي.

ومضت العجوز فأتبعها نظره وهو يفكّر:

– هذه العجوز ستعيش أربعين سنةً أخرى، أمّا أنا فيجب أن أموت. وثروتي؟!. لقد قضيت حياتي كلّها في سبيل جمعها درهماً درهماً، وغرقت في عملي فلم أجد وقتاً أتزوج فيه. كنت أستطيع الزواج بعد انتهاء الحرب، ولكن الحيطة حالت بيني وبينه، ولو تزوجتُ آنئذ لكان لي اليوم أبناء كبار... ولكن ما أدراني أنّ حياتي ستكون قصيرة؟..

وأطرق برأسه وقال متضرّعاً في صوت عال:

– يا رب... يا رب.

كان أكثر ما يغيظه ويزعجه أن لا يجد أحداً يخلف له ثروته، وإنّها لثروة بذل في سبيل جمعها عشرين سنةً من الجهد والحيلة. أيتركها إلى الدير؟ أيتركها إلى مشروع خيري؟ كلا ثمّ كلا، إنّ عقله يأبى ذلك وينكره. لقد عرف بيكوف معرفة يقين أنّ الكهّان والرهبان ومن لفّ لفّهم، ممّن يُنَصِّبُون أنفسهم أولياء على خيرات الله في الأرض، وربما جاوزوها إلى السماء، ليسوا ممّن يثق بهم الإنسان كثيراً، وإنّهم يحملون على

ظهورهم من الآثام مثل ما يحمل على ظهره، ثمّ إنّ صلته بالله لم تكن على ما يرام، فقد كان يحذره ولا يطمئنّ إليه. كان يشعر بيكوف دائماً أنّ الله مُطَّلِعٌ على أعماله، عارف سرّه وعلنه، مراقب له، وأنّه طالما عرقل سيره وحال بينه وبين أطماعه، هذه الأطماع التي تقوم عليها الحياة ولا تستغني عنها.

كم مرّة دبّر بيكوف أموره، وهيّأ كلّ شيء، ولم يغفل شاردة ولا واردة، ولكن هاهو ذا يحسّ في أعماق نفسه بعود من الثقاب يشتعل، وبخيط من النور يبصّ، وإذا بالحياة تدبّ في الأفكار القاتمة الغائمة، وإذا بالخوف من الإثم يستيقظ في نفسه، وإذا بالخشية من العقاب تنبض في قلبه، وتثير فيه نوعاً من الشعور كأنّه الإشفاق على أولئك الذين استطاع بيكوف نفسه أن يخدعهم وأن يستنزف دماءهم.

وفهم بيكوف أنّ هذا البصيص من الوجدان ليس من عمل الشيطان، وأنّ الله هو الذي يبعث به حين يضطره على الرغم من عقله، إلى أن يرحم إخوانه من الناس، حين تكون مهمّته أن يظفر بأموالهم، وفي مثل هذه الأحوال يقول بيكوف في حزن وتهكّم لوكيل أعماله وأمين سرّه «كيكين» الأحدب الخجول صاحب العينين العصفوريتين:

– ولماذا أشفق على الناس وهم لا يشفقون عليّ؟ لم أعرف واحداً منهم أحسن إليّ.

ويقول له كيكين:

– الشفقة غباوة، ما في ذلك شك.

وتذكر كيكين فتناول عصا مكنسة ثم قرع بها السقف، وتسلّل إلى

الغرفة بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق أحدب ضئيل الجسم في غير ضجّة. كان ذا فخذين مفتولين إذا تشابكتا في مشيه خُيِّل إليك أنّهما لولبان.

وسأل الأحدب بيكوف وهو يغمزه بعيني دجاجة مريضة:

– ما الخبر؟

– يظهر أنّي سأموت.

– لعلّ ذلك غير صحيح.

– بل هو صحيح.

– لقد تعجل الموت.

– نعم لقد تعجل، ولكن سيّان عليّ أن أموت عاجلاً أو آجلاً ما دمت غير قادر على رد الموت عني، وأنا كما تعلم، جندي، ولكنّ الذي يهمّني هو أن أعرف ماذا أفعل بثروتي؟!

وقال الأحدب، وهو يصبّ الشاي، ويدقّ الأرض برجليه:

– ثروتك يرثها قانونياً ابن أخيك يعقوب سوموف.

وصرخ بيكوف في غيظ هاج عليه ألمه في خاصرته:

– ولكنه في الدرجة الثالثة من الوارثين، ثمّ إنّي لا أعرفه، ولم أره منذ خمس سنوات.

– هذا حكم القانون.

– القانون؟!

وصرف بأسنانه، وألقى في وجه صاحبه شتيمة مخيفة، فقال له كيكين ناصحاً في فتور:

– إذن فهب ثروتك لأعمال الخير والإحسان.

- كلا ثمّ كلا، لست غبياً فأبذر الحب فوق الصخور.

- صحيح، ليس في هذا ما يسر.

وأطرق بيكوف مفكّراً ودمدم كلمات في غيظ ثمّ أمر الأحدب بدعوة ابن أخيه إلى مقابلته في اليوم التالي:

- أريد أن أرى نوعه في الحيوان.

وجاء يعقوب سوموف مساء فقال في رعاية، دون أن يمدّ يده:

- مساء الخير.

لم يكن صوته قوّياً، ولكنه كان واضحاً، وقد رنّت في تحيّته نبرةٌ من الذكاء، تحسّ عند سماعها أنّها ليست كلمات فارغة، ولكنّها كلمة ملأى بالحنان.

كان يعقوب معتدل القوام، رشيق الحرك، سفعت الشمس وجهه، وتألّقت عيناه الزرقاوان في عطفٍ ولين، وتدلّت فوق أذنه اليسرى خصلة متمردة من شعر أشقر، وبدت تحت أنفه البارز بقعة صغيرة مضيئة، إنّه يوحي إلى من يراه بالصلابة والنقاوة والجاذبية.

وأدرك بيكوف ذلك في سرعة، ولكنه قال في لهجة من تعوّد الحذر من الناس:

- أمّا وجهه ففيه بلاهة، والظاهر أنّه زير نساء.

وسأله أسئلةً دقيقةً وراقبه وهو يجيب: كان يلبس لباس الفقراء من الناس: قميصٌ أزرقٌ، وسراويل يضمّه الحذاء، وعرف أنّ عمره تسع عشرة سنة، وأنّه وكيل تاجر خشب، وأنّه الملحن الأوّل في جوقة الكنيسة، وأنّه يحبّ صيد الصنارة، ويهوى المطالعة.

وقال بيكوف في حيطة وهو يسمع قصته الهادئة:

- يحدّث عمّه كأنّه يعترف أمام كاهن، يا له من كاذب، لقد عرف لِمَ دعوته، فهو يريد أن يسمو في عيني.

وفجأةً صرخ، على الرغم منه، قاتم الوجه، متشنج الأعصاب، فاغر الفم:

- وأنا سأموت...

وسمع من يجيبه:

- لا.. لا.. ولماذا؟

وقال بيكوف في دهشة وغضب:

- وكيف تقول لي: ولماذا، ألا تدري أنّي مريض؟

وقرّر بينه وبين نفسه: يا له من غبي.

وشرع يعقوب سوموف يتحدّث حديث الرجل الرفيق الواثق:

- لكلّ داء دواء. أضرب لك مثلاً: عصير الجزر... أصبتُ بالسلّ منذ سنة، فقالت لي والدة رئيس الفرقة الموسيقية في الكنيسة، وهي امرأة عجوز ذكيّة صالحة: جرّب عصير الجزر، اشرب كأساً منه كلّ صباح على الريق، وجربته فَشُفِيتُ.

وابتسم يعقوب سوموف ابتسامة النشوان، ومدّ يده فدغدغ عنقه وصدره، وشعر بيكوف أنّ كلمات ابن أخيه الهادئة الواثقة تهدهد ألمه:

- ولكنّ مرضك السل، أمّا مرضي...

- ولكن السلّ مرضٌ خطير... جرّب عصير الجزر أو عصير الفجل المنقوع في الكحول، بل إنّ عصير الفجل أسرع عملاً، إنّ فيه ملح البارود،

وهو أنجع دواء للتعفن، الصيّادون عندما يملّحون السمك يضيفون شيئاً من ملح البارود حتى لا يتفسخ، والمرض تفسّخ.

كانت في حديث يعقوب ملاحة مدهشة، وانسابت كلماته مثل حبّات الرمال في الشاطئ تجرف حذر بيكوف الذي أوحاه إليه شباب ابن أخيه:

- أنّى لك هذا؟

وقصّ عليه يعقوب في رضا، كأنّه يتحدث إلى صديق قديم، أنّه لَقِيَ شاباً مثقفاً، وصياداً ممتازاً، علّمه فأحسن تعليمه، وأنّ هذا الشاب انتحر في الخريف الماضي.

- ولماذا انتحر؟

- لقد أحبّ فَشَقِيَ بحبه.

- ولكنّ الانتحار جنون.

- كان مستقيماً...

- كيف؟

- كان مستقيم العواطف.

- أوه!

وفكّر بيكوف: «يا لك من صبي مضحك ثرثار.. ولكنّك صغير».

وانقضت فترة غير قصيرة في حوار سهل ممتع، وألقى سوموف نظرة إلى ساعة الحائط، وأعلن أنّ عليه موعداً في الكنيسة للتمرّن على الغناء، ثمّ سلّم في رعاية وحشمة وانصرف.

وتمدّد ايجور بيكوف فوق مقعده وجعل يفكّر:

أنّ الحوار الطويل يزعجه دائماً. وعلامَ الحوار؟ أنت تعرف مباشرة ما يريد منك الناس، وتعرف مقدّماً ما تريد من الناس. أمّا هذا الولد فنسيج وحده، إنّه ما يزال صبيّاً ولكنّه لم يعلن أنّه له قريب ولم يدعه عمّه على الرغم من أنّه يعرف تماماً أنَّ ليس له قريب غيره. أترى ذلك محسوباً ومقرراً سلفاً؟! ما يظن بيكوف ذلك، فلم يبد على وجه الفتى ما يفضح سريرته.

وعاد كيكين إلى بيكوف متعباً يكدّه العرق، كان في المخزن يُسَلّم دفعة من القنّب، وجلس إلى المنضدة ثمّ سأل:

- هل جاء؟

- نعم.

- وما رأيك فيه؟

- هل تستطيع معرفة طوية الإنسان من نظرة واحدة؟ ومع ذلك فقد كانت أسرته راضية مطمئنة.

وجلس كيكين يشرب الشاي ويقضم الخبز، ويبلع اللحم ويصغي إلى حديث سيّده المفكّر:

- إنّه يجب أن يحمل إلى الناس شيئاً من السلوان والعزاء، وهؤلاء الذين يحملون لهم السلوى مكرة خادعون، لا أثق بهم ولا أحبّهم. ليس الحنان فضيلة عندي، فقد عاش الناس ومايزالون يعيشون وكأنّ الله خلقهم لكي يسخر بعضهم من بعض ويهزأ بعضهم ببعض.

وقال الأحدب يوافقه:

- كلّ هذا صحيح.

ونسي الأحدب حين قال ذلك أنه كان طوال حياته موضع سخرية الناس لأنّه ذو عاهة.

– نعم إنّ الشيطان يغوينا ويثيرنا فينفر بعضنا بعضاً كأنّنا الديكة، وهو ممسك بكلتا يديه خاصرتين يخشى أن يقتله الضحك علينا إذا ما نحن أخطأنا، ولله فينا سرٌّ خفيٌّ لا نعلمه. إنّ الله مثل رئيس الشرطة يرى منظر المتشاجرين ويسمع شتائمهم، ولكنّه لا يتدخّل في أمرهم، ولا يقول لهم شيئاً.

وكان حديث بيكوف حديث المغيظ المحنق، ثمّ أغمض عينيه وسأل صاحبه.

– ما أخبارك عنه؟ عن يعقوب؟

ووضع كيكين ملعقة من العسل على قطعة من الخبز، والتفت هو وكرسيه نصف التفاتة وقال:

– أخبرني معلمه تيتوف أنّه ولد نشيط، وأنّه ربما غلب عليه هواه.

– وكيف ذلك؟!

– لم يستطع تيتوف شرح ما يعنيه، ولكنّي فهمت مع ذلك أنّ يعقوب يحبّ أن يصنع أكثر مما يُطلَبُ منه، وأن يهتم بما لا يمسّه، وسألت عنه شمّاس الكنيسة فأثنى عليه ثناءً عاطراً، ولكنّنا لا نستطيع أن نصدّقه، فهو صديقه وهما في الصيد مشتركان.

وسألتُ عنه صاحبة البيت فقالت: إنّه لا يشرب الخمر وحده، وربما شربها مع أصحاب له، وذكرت أنّهم ليسوا بأولئك: فهم عمّال يلحّمون الحديد في معمل كوتونوف، وصانعو أقفال، وحلاق.

- حسناً، إنه لا يستطيع طبعاً مرافقة الحاكم.

وقالت: إنّه لا يأتي بالنساء إلى غرفته، وأنّه يحبّ النظافة والنظام، وأنّه طيب.

- طيب؟

- نعم.

- ذلك طيش الشباب، إذن فهو يعرف أنّك تسأل عن أمره وربما اكتشف سِرّ دعوتي؟!

- ما أظنّ ذلك، فقد كنت حذراً.

وسكت بيكوف يفكّر:

- ما العمل؟ ذلك قدر ما أستطيع محوه، وعليّ أن أرضى به. سل عنه وزدني من أخباره، وادعه إلى زيارتي، فقد نسيت أن أدعوه.

وصرخ بيكوف في اشمئزاز أسود كريه:

- لا... لا... تصوّر أثر ذلك في نفسي، تعبت وتعبت، وحملت الآثام على ظهري، وعلامَ ذلك كلّه؟ وفي سبيل من هذا كلّه؟ في سبيل رجل غريب، في سبيل صبيٍّ أحمق.

وقال الأحدب مقتنعاً بصواب سيّده، وغمز بعينيه المستديرتين:

- يا لها من حكاية مزعجة.

- 2 -

لعلّ الداء كان واقفاً ينتظر إذن الطبيب فلم يكد يشير إليه حتّى أسرع إلى المريض، فاشتدّ وجع خاصرته، واضطرب عقله، وأصبح يُخَيَّل إليه أنّ في كلّ خلية من خلايا جسده ديداناً من القلق والحقد تتحرك دون انقطاع وتتلوى دون هوادة.

وسأله كيكين مرّة:

- كيف الحال؟

- عسيرٌ عليّ أن أشرح لك حالي، هذه هي المرّة الأولى التي أموت فيها، ولهذا فأنا لم أتعود الموت.

كان يحب السخرية ويعرف كيف يتهكّم، ولقد أفاده هذا اللون من العبقرية في عمله، فإذا جاءه الذين خدعهم يلومونه ويشتمونه قال لهذا أو لذاك:

- لم أصنع غير ما كتبه الله لي، ولم تصنع غير ما كتبه الله لك.

أمّا الآن فهو لا يقدر على التهكّم، وما قوله هذا لأمينةُ كيكين إلّا بقايا عادته القديمة، وهو الذي لم يكن ليتناول كيكين من قبل بغمزاته.

وقضى أياماً طويلة يتمدّد على مقعده، ويسند رأسه إلى الزاوية التي فيها الأيقونات، ويحسّ شيئاً فشيئاً أنّ ذهنه يجفّ وأنّ أفكاره تنضب وأنّه يصبح أجوف فارغاً كالجلجل لا ترنّ فيه غير فكرة واحدة:

- أموت... لماذا أموت؟!

وحاول، كي يخنق هذا السؤال، أن يتذكّر ما نسي من الأدعية والأوراد، واستطاع بعد لأي أن يردّد:

- يا رب... يا قادر... قني عذاب النار، وارفع غضبك عني واحفظني من همزات الشياطين... آناء الليل وأطراف النهار...

وكان، وهو يدعو، يحسّ أنّ كلماته لا تقرّبه إلى الرضا بقضاء الله والتسليم لأمره، بل هي على عكس ذلك تذكّره بموته عبطة قبل الأوان، فتزيد حقده ناراً وغيظاً توقّداً.

ونهض من مقعده فألقى على كتفيه رداءه ومضى إلى النافذة فمرّ بالمرآة، وانعكست على صفحة هذه المرآة صورة شبح طويل هزيل لإنسان سجين: وجه فاحم، وعينان زائغتان، ولحية وخطّها الشيب، وأخذ من على المسند مشطاً وجلس يصلح شعره، وينظر إلى الشارع والمنازل، وقد أحاطت بها الحدائق الغلب، وبدت القصور في قلب هذه الحدائق قويّة متينة تتحدى القرون: الشارع صامت مقفر، والحرّ شديد، والسادة، أصحاب هذه القصور، هجروها إلى البرية يصطافون، ولم يبق أمام الأبواب إلا البوابون.

كلّ شيء هادئ ساكن إلّا هذه العصافير المنهمكة في عملها تزقزق وتغني، ولكنّها مع ذلك لا تستطيع الحيلولة بين بيكوف وبين تفكيره في ظلم الأقدار:

أهكذا تثبت للدهر وتصمد لصروف الزمان هذه القصور ذات الأسس العميقة الضاربة في أحشاء الأرض، هذه الأعشاش البشرية التي

صنعها الناس من القرميد، أهكذا ترفع رأسها شامخة أمداً طويلاً، أمّا هو، أمّا الإنسان الذي بناها، ووهب للأرض جمالها بيديه، فقد حُكِمَ عليه أن يموت، وأن يموت في أمدٍ قصير. ولماذا حَكَمَ عليه القدر بالموت العاجل: وهو هو ايجور بيكوف، الذي يحمل وسام سان جورج بدرجة فارس، والذي هو تاجر من الطبقة الثانية، لماذا حكم عليه القدر بالموت قبل أن يبلغ عمره نصف مئة من السنين؟ أهو أكثر من الناس آثاماً، ولكن هل يحدد اقتراف الذنوب والآثام أعمار الناس؟

وربما شعر المريض بشيء من الراحة والطمأنينة في الأماسي التي يزوره فيها يعقوب، كانت أحاديث ابن أخيه تنتزعه من أحضان أفكاره السود انتزاعاً، وتوقظ في نفسه تطلّعاً حاداً وفضولاً غريباً، إنّه يريد أن يعرف هذا الصبي ويحرص على فهمه، هذا الصبي الذي كُتِبَتْ له حياة طويلة هادئة غنيّة، سيعيشها على حساب غيره، ولن يضطر فيها إلى ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب، أيكون لحسن حظ هذا الصبيّ الغرير سبب، أم تُرى ذلك حماقة من حماقات القدر جائرة ومضحكة في آن واحد؟

وكان حديث يعقوب غاية في اللذة والطرافة، وبيكوف يصغي إليه في سرور وفي دهشة، هذا الحديث مزيج فوق العادة فيه الحماقة وفيه الذكاء، ولذلك فلم يستطع بيكوف أن يحكم على ابن أخيه حكماً نهائياً رغم أنه كان كثير الرغبة في أن يسرع في الحكم عليه.

وطالما سأل بيكوف نفسه:

– أتعود حماقته إلى أصل طبيعته أم إلى سورة شبابه؟

ويظل يصغي إلى يعقوب وهو يقول ويبتسم ابتسامة المفكّرين:

- إذا شئت أن تحيا كما يحيا الناس جميعاً مللت، وإذا شئت أن تحيا على غير شاكلتهم تعبت.

ويجيب بيكوف:

هذا صحيح، ومع ذلك فالناس يختلفون.

وأزعجه أن يرى هذا الغلام الجميل مصراً على فكرته، وأن لا يستطيع هو بيكوف أن يجد ما يردّ به على هذه الفكرة:

- كلا بل هم متشابهون في صميمهم.

- وما هذا الصميم؟

- إنّ صميمهم قائم على رغبتهم في أن يعيش بعض على حساب بعض.

وسكت بيكوف، وجعل يعبث بلحيته، ويرقب صاحبه، نعم ابن أخيه مصيب، إنّه هو أيضاً سيعيش على حساب غيره، على حساب عمّه الراحل بيكوف.

ولكن... أيعرف يعقوب هذا الأمر أم لا يعرفه؟

إن كان يعرفه ثمّ يتحدّث فيما يناقض مصلحته فهو إذن أبله.

وإن كان لم يعرفه حتى الساعة فهو كذلك أبله.

وأراد بيكوف أن يكتشف مزيّة يعقوب الأساسيّة فقال له:

- الحياة كفاح يا صاحبي وقانونها: لا تتثاءب، وهو قانون سهل.

- هذا صحيح، ومن هنا كانت النكبات.

- ولكن لا سبيل إلى الخلاص من هذه النكبات.

وسكت يعقوب وابتسم.

لقد شعر بيكوف أنّ هذه الابتسامات التي تعلو وجه ابن أخيه الأنثوي ليست في مكانها ولا في زمانها، وأنّها غير نافعة، وأنّها تحمل في طيّاتها طواعيّة مزعجة، وقال في نفسه وهو يدّقق النظر فيه:

- يظن أنّه ذكي.

وربّما شعر بيكوف بضيقٍ أكثر حرجاً عندما كان يرى يعقوب يقطع الحديث ثم يخفض عينيه فيعبث بملعقة الشاي، أو يشتغل عنه بزرّ ردائه، ويتّخذ سيماء رجل يعرف أشياء كثيرة مهمة، ولكنّه يضنّ بها على غير أهلها.

وأثاره هذا الصمت مرّة ثورةً جامحةً، فصاح، وصوته يتهدّج:

- ألا تفهم ما أقول؟

وأجاب يعقوب في أدب جمٍّ وفي شيءٍ من الخجل:

- بلى لقد فهمت، ولكنّي أرى ما لا ترى.

- ولماذا؟

- لي غير هذا الرأي.

- وما رأيك أنت: حدّثني، ناقشني، تكلّم ولا تسكت.

وقال يعقوب في مثل أدبه السابق:

- لا أحبّ المناقشة، ولا أعرف كيف أناقش، وأنا أرى أنّ المناقشات لا تؤدي إلّا إلى شيءٍ واحدٍ هو زيادة الخلافات.

- إذن فأنت تريد أن يسكت الناس؟

واستمرّ يعقوب في شرح فكرته كأن لم يسأله أحد:

- لا يناقش الناسُ الناس ليكشفوا عن الحقيقة، بل ليخفوها.

الحقيقة البسيطة التي يعرفها الناس جميعاً هي: كونوا في براءة الأطفال: أحبّوا للناس ما تحبّون لأنفسكم، ومن العار علينا أن نناقش هذه الحقيقة.

وقال بيكوف متقزّزاً:

– يا له من ساذج.

وضحك ضحكة خبيثة وهو الذي يعلم أنّ الضحك يزيده وجعاً، ثمّ قال:

– وهل تعيش أنت كما يعيش الطفل؟ هل تحب أخاك الإنسان؟ آهٍ منك. منذ لحظة قلت إنّ الحياة كفاح وحرب، وأنت الآن تقول غير ما قلته آنفاً.. وأرىٰ أن رأسك لا يكاد يستقيم.

ولم يُؤْخَذ يعقوب بسخرية عمه، بل تابع قوله في عناد حلو:

– هذه هي الطريقة الوحيدة التي نستطيع بها أن ننقذ الحياة مما فيها من آلام، وعلينا أن نوجه أفكار الناس في هذه الطريق:

– أيّة طريق؟

– أن نعيش كما يعيش الأطفال.

– ولكنّ الأطفال أيّها الأحمق لا يساويهم أحد في عربدتهم، وطيشهم، ألا تعرف هذا؟ انظر إليهم كيف ينقضّ بعضهم علىٰ بعض كأنّهم الوحوش.

وسكت يعقوب وابتسم.

وأراد بيكوف أن يقذفه بإهانة، ولكنّه تمالك نفسه وقال في زفرة من زفرات الألم وفي صوتٍ أجش:

– دعني الآن، فأنا متعب.

وجلس عند النافذة يتطلّع إلى الغيوم الحمر تضطرم كالنار فوق البساتين وغرق في تأملاته:

- صبيٌّ غامض.. رأسه يغلي.. ولد مبهم.. لا نستطيع أن نجسّه ولا يَتْرُكَ لنا طريقاً إلى جسّه، يا رب! يا رب! ما أكثر ما في العالم من أسرار! إنّه يتناول طعامه في بطء، وفي هذا دلالة خبيثة، فالكسالى يأكلون في مهل، وهو أيضاً يأكل قليلاً: يلتقم لقماً صغيرة كالسادة، ثمّ يمضغها مضغاً جيّداً كالشيوخ، رغم أنّ أسنانه قوّية سليمة، وهو دائم التفكير، وعلامَ يفكّر الشباب؟ وفيمَ يفكّر؟ وهو يمشي على مهل كأنّه يمشي في أرض لا يعرفها، وفي وجهه ملامح «فتاة جميلة» ولولا عزاره لكان وجه امرأة حقاً، وهو يريد أن يعيش كالأطفال... يا له من أبله، بل لعلّه غير أبله، لعلّه إنسان رخو القلب، هشّ النفس، لم تعركه الحياة ولم تمخضه، ولم تشدّ على قلبه، يا له من فتى غرير، إنّه يرجو أن تنقضي حياته دون أن يظلم الناسُ الناسَ، ودون أن يظلموه، ويرجو أن ينصرم عمره دون أن يرتكب مأثماً أو يقترف ذنباً، وليس في مثل هذا الرجاء شرٌّ، ولكنّه أمر محال.

واستعرض بيكوف حياته القاسية الماضية، فأشفق على نفسه إشفاقاً فاض فغمر قسم منه ابن أخيه:

- إنّه يعرف أنّ الحياة على غير نمط الناس أمرٌ عسير، وعليه أن يفهم أنّ الزبدة لا تكون حيث لا تكون الآثام، وإلّا كان الحساء غير ذي دسم، والعمل غير ذي جمال، كلّ إنسان يتمنى أن ينام فوق سرير ناعم... ومع ذلك أرى أنّ يعقوب لطيف، وأنّ في عروقه نقطة من دم آل بيكوف.

ودخل عليه كيكين فقال له:

- أمّا وارثي فليس ذا همّةٍ، ولكنّه ساذَجٌ طاهِر، إنّه يريد أن يعيشَ كما يعيشُ الأطفال، أسمعت طوال حياتك مثل هذا القول؟

- ورد ذلك في الإنجيل على لسان السيّد المسيح.

وزمجر بيكوف زمجرةً ولمس خاصرته الملتهبة وتمتم بين أسنانه:

- أمّا المسيح فابن الله، وأمّا أنا فابن ايفان بيكوف، أنا ابن فلاح.. عليك أن تميّز بيننا... المسيح لم يبع قشور القنّب وحثالته كما بعت، ولم يعش في الزمن الذي أعيش فيه. وأخذته الحماسة فجعل يضرب بيده على ذراعِ مِقْعَدِه:

إذا كنت تحبّ أن تعيش كما عاش السيّد المسيح، فانزع عنك ثيابك، واخلع نعليك، وامض في خرقك البالية، حافي القدمين، واحلق وفرتك احلقها...

وأتعبته حماسته فمسح وجهه وسكت ثمّ قال في صوت حزين يعاتب كيكين:

- وأنت أيضاً تسخر مني.. تقول لي: المسيح، المسيح، ولكنّ المسيح والأحدب اثنان لا واحد. أسمعت: العصافير تزقزق وستظل تزقزق... أمّا أنا فسأموت، إنّ المسيح لم يشعر بمثل هذا الشعور.

وقال كيكين عرضاً:

- ولكنّ المسيح شكا ألمه في بستان المعصرة ذات يوم.

وانبسطت أسارير بيكوف فتابع في حماسة:

- نعم، نعم... تذكّرت ذلك!... إنّه هو نفسه قد رأى نهايته العاجلة مُرَّةَ المذاق، وسأل أباه أن يَصْرِفَ عنه كأسها، فما أصنع أنا بعد ذلك ولست إلّا ابن فلاح؟

وزفر زفرةً أليمةً وغاص في مقعده ومدّ ساقيه وجعلَ يئنُّ ويتوجّع:

- ما العمل يا كيكين؟ قل لي: أيّ يدٍ ستستولي على ثروتي؟ أليس ممّا يدفعك إلى الجنون دفعاً أن توفّر وتقتصد وترتكب الإثم وتجمع الثروة ثمّ ها أنت ذا تفقد كلّ شيءٍ وتلقيه في هاويةٍ ليس لها قرار؟ قل لي حدّثني!

وظلّ يتكلّم وهو شاكٍ غاضب، وجعل يلمس أواعي الأزهار في النافذة، وكيكين مُطْرَقُ الرأس يقرع ركبته!

وتنهّد بيكوف ثمّ قال:

- إذا حرمتُ يعقوب فلم يرثني، ولم أهبْ ثروتي لمشروعات البِرّ... كانت نهباً لخزينة الحكومة...

وقضم أسنانه وتابع:

- وعندئذٍ أكون كأنّي مجرم جُرِّدَ من حقوقه وحُكِمَ عليه بالسجن المؤبّد!

- هذا صحيح.

- يا لها من لعبة محكمة!

- لا مناص منها.

وظلّا أمداً طويلاً صامتين يبحثان عن حل، وأخيراً رأى الأحدب أن يدعو بيكوف ابن أخيه إلى الإقامة معه في بيته، وعند ذلك يدرسه عن كثب، ويستطيع أن يؤثّر فيه، لعلّ الصبيَّ أن يصبح أكثر جداً وأصلب عوداً، إذا أحسّ بما تفرضه الثروة على صاحبها من وجائب....

ووقفا عند هذا القرار.

- 3 -

المطر يلهب زجاج النوافذ بسياطه، والريح تزمجر، والبروق تلمع فتنير الظلال في الشارع، وتغمر الغرفة المعتمة بنورٍ أزرقٍ باهت. والنباتات على أطراف النوافذ كأنّها عليلةٌ، والأثاث يهتزّ وينساب إلى البقعة البيضاء عند الباب. والحطب في المدفأة الخزفيّة يُطَقّطِقُ ويشتعل، وبيكوف جالس أمام المدفأة يُدَفّئ رجليه الباردتين، وقد قفزت على ثيابه وركبتيه وصدره بقع حمر نارية تنير شطراً من لحيته، ثمّ لا تتجاوز ذلك إلى وجهه لأنّه كان يلقيه في ما وراء المدفأة وعيناه مغمّضتان كأنّه أعمى.

جلس كيكين المكعّب المكوّر فوق مقعد أبيض، يخفي يديه في صدره، تحت صندوقه، والنار تنعكس على عينيه انعكاساً غريباً وهو يحدّق في وجه يعقوب الذي اعتمد كتفه على آجر المدفأة، وجلس يتحدّث في صوت خافت كأنّه يقصّ أسطورة:

– كلّما تراكمت الأموال في صناديق بعض الناس زاد طمع سائرهم فيها، وهكذا يرى الفقراء تلك الثروات الضخمة...

وتمتم بيكوف وهو يفتح عينيه:

– إيه!

وتنهّد كيكين، وغمس الملقط في المدفأة وجعل يقلّب الحطب،

وفرقعت جذا النار في حنق، وبصقت الشرر على لوح النحاس أمام المدفأة.

وسحقها بيكوف بقدمه، وألقى نظرات حزينة:

– كلّ شيءٍ خبيث، كلّ شيءٍ مؤلم.

وبدت سحنة كيكين كُرَةٌ من نحاسٍ صدئٍ عبث بها الناس زمناً ثمّ تركوها، وانتصبت على جمجمته شعرات كأنّها القطيفة، وفغرت الدهشة فمه الضفدعي، وامتدّت أذناه كأنّهما قرنا شيطان، وبدا وجه يعقوب كأنّه صورة رسمت في قعر آجرةٍ بيضاء، ولم تزده الثياب الجديدة التي يلبسها رّقة ووداعة.

– وسأله بيكوف ساخراً:

– أتظنّ أن الفقراء أوشكوا أن يثبوا بالأغنياء وينهبوهم؟

– لابدّ أن توزّع الثروة في عدل.

– أهكذا تقول؟ إنّ تفكيرك خبيث يا صديقي!

– لست وحيداً في هذا التفكير فملايين الناس يفكّرون كما أفكّر.

– وهل أحصيت عددهم؟

وتدخّل كيكين في مهارة فقال وهو يحدّق في المدفأة:

– الحقّ أن الشعب ناقم.

وهزّ بيكوف حاجبيه وقال له نافخاً:

– اسكت! ألا ترى أنّي ساكت.

منذ شهرين يقيم ابن أخيه عنده، وبيكوف يلاحظ أنّ موافقة الأحدب على آراء يعقوب تزداد وتطرد، وأنّه أصبح أكثر فطنةً وأوفر

رزانةً، وأنّه أصبح يرعى الفتى رعاية المعجب المطيع، لقد شمّ الكلب رائحة سيّده الجديد.

- هؤلاء هم الناس.

أمّا ابن أخيه فأولى له ثمّ أولى أن يكون أحمق غير محنّك، من أن يكون كثير الخبث، شديد المكر والدهاء، محال عليك أن تفهم ما يريد، إنّه يتحدّث إليك لطيف المدخل رفيق المخرج، كأنّه يريد أن يأخذ بيدك، دون أن تشعر، ويقودك إلى أن تفكّر كما يفكر، وإلى أن تعتقد كما يعتقد من أنّ كلّ ما في الحياة من شرٍّ وتعقيد راجع إلى الثروة والثروة وحدها. وأنّها لفكرة يمكن أن يعتنقها ذو عاهةٍ أو أحدب، ولكنّها لا تناسب يعقوب ولا تلائمه. وبيكوف يرى أنّه في الدعوة إليها غير مخلص، فهو يعرف أنّ ثروة عمّه كلّها ستنصب في خزائنه بعد موته، وهو أيضاً لا يشبه في شيءٍ ذلك الذي يحبّ الناس والذي هو أهل أن يوزّع على الفقراء منهم كلّ ما يملك، بل إنّ فيه كثيراً من عادات السادة وطبائعهم، فهو يحترم الأشياء ويعنى بها، ويحبّ النظام والنظافة، لقد كان البوّاب نائماً فأقعده وجعله يمشي على قدميه وأعانه على تنظيف باحة البيت، وهي التي لم تلْقَ منذ أمدٍ طويل حظّها من العناية، ونقّب عن كلّ شيءٍ، وألقى القبض على الوكيل متلبّساً بجريمة السرقة، وهو فوق ذلك كلّه لا يحبّ الشحّاذين... إنّه كالماء الكدر لا يصفو لك دائماً حتى تتبيّن ما وراءه. وهذه الخصلة من الشعر المتمردة المتدلية على صدغه، لعلّ من دماغه خصلة أخرى من الشعر متمرّدة عنيدة...

ولكن... لعلّه إنّما ينشر هذه الهرطقة المزعجة الشاذة لسبب واحد: إنّه يريد أن يخيف المريض ويثيره ويسرع به إلى القبر.

ولقد أقلقت هـذه الفرضيّة بيكـوف، فـسأله يعقـوب ذات يـوم في صراحة:

- ولماذا تنفق علينا كلّ هذه الأراجيف؟!

وقلب ابن أخيه عيني خروف وأجابه:

- يجب أن ننظر إلى حياتنا نظرةً أكثرَ عمقاً ووضوحاً، لقد كان لعينيّ هذا الفتى تعبيران: أمّا أحدهما فتعبير عن صبيّ صـالح قريـب إلى الـنفس، وأمّا الآخرَ، وهو الغالب، فتعبير جامد أحمق أعمـى يـستولي عـلى عينيـه في اللحظات التي يندفع فيها إلى نشر بِدَعِه.

- يجب أن نتبيّن أمورنا في وضوح، يجب أن يتفاهم الناس ليتعاونوا...

ونفخ بيكوف ثائراً:

- ليتعاونوا على من؟ ومن الذي اعتدىٰ عليهم؟ إنّهم هم المعتـدون. أفهمت؟

وعاد الشاب يقول في عناد:

- لن يستطيع الناس الحياة ما دام بيـنهم اخـتلاف. لقـد قـال المثـل القديم: من يزرع الريح يحصد الزوبعة. يجب أن يندم وجدان العالم عـلى مـا قدّم، وإلّا فالثورة ناشبة لا محالة...

وصرخ بيكوف في ملل:

- أنت كذّاب.

والأيّام تمضي، وبيكوف يسأل في كلّ يوم نفسه: أهذا الفتى أهل لأن يكون لي وارثاً أم غير أهل، وحالت تأمّلاته هذه دون تفكيره في الموت، بـل ربّما خُيِّلَ إليه أنّها تهدهد من ألمه.

- يا لـه مـن فتىً غـامض.. الـشحّاذ يفهـم أنّ المـال دعامـة الحيـاة الصحيحة المتينة، وأنّه حصن الإنسان المنيع.. بل إنّ القنافذ تفهم هذا الأمر البديهي.

وفي الليل، إذ هدأت الأشياء، وصـمت كـلّ مـا عـلى الأرض، كـأنّ الليل نفسه يريد أن يتأمّل في النهار الذي انقضى، ويستعرض ما كان فيه من حوادث، في الليل إذا ازدادت الأفكار وزناً وكثافةً وكـادت تـصبح أشـياءً محسوسةً ملموسـة، في الليـل حـين تنفلـت كبكبـة العقـل المتـشابكة وتمـدّ خيوطها القاتمة في كلّ مكان تحاول أن تصطاد كلّ شاردةٍ، في هذا الليل كان بيكوف يصغي بأذنيه إلى جاره الذي يسكن الغرفة فوقه، فيتبيّن أنّه ما يـزال سهران لم ينم، ويُخيَّل إليه أنّه يسمع حـديث يعقـوب العنيـد، ويـرى وجـه الأحدب المتعجب.

وهذا الفتى يبحث في تعديل القوانين، وتحديد سلطة القيـصر، نعـم إنّه يتنطّع ويدسّ أنفه حتى في هذا الموضوع الخطير.

إنّه يعلم أنّ الناس تهامسوا حول هذا الموضوع خلال الحرب الروسيّة - التركيّة، وأنّهم الآن يتحدّثون عنه مرّة أخرى لأن حرباً جديـدة قـد شـبّت نيرانها، وأنّ المدنيّين وحدهم هم الذين يثيرون هذه الـضجة، فهـم لا يريـدون أن يحاربوا، وهم يخافون أن يُجنَّدوا ويُسَاقُوا إلى ميدان القتال، ولقد حـاولوا في بدء الحرب التركيّة قتل القيصر، فلم يُوَّفقوا إلى قتله إلّا بعدها:

- ما أحمق هؤلاء الناس: الحرب قديمة قِدَمَ الإنسان، فعلامَ يحاربون الحرب؟ لقد حارب اليشع، وكان داود نبياً طيّباً رحيماً لـه مـزاميره، ولكنّـه اضطر إلى خوض المعارك، وآباء الكنيـسة حـاربوا، وأمـراء الـروس التقـاة

قاوموا أعداءهم التتر، والقديس الكسندر نيفسكي أباد أهل السويد إبادةً ما فيها رحمةً ولا شفقةً، مع أنّ أتباعه لم يقتلوا واحداً منهم، ولكنّ الله قتلهم، يا لجهالة الجهلاء.

وأتعب بيكوف استلقاؤه على سريره، فمضى يجلس قرب النافذة، ويتطلّع إلى النجوم وإلى القمر ذي الوجنتين المتنفختين، وشعر بالضجر ينصبُّ من السماء المزدهية بالنجوم انصباباً. وتذكّر كاهن الكنيسة، الأب تيودور، وقوله المكرور:

«ما أشدّ روعة الإنسان حين يرى جلال السماء العجيب» وتذكّر أنّ هذا القول لم يكن يحول بين الأب ولعب الميسر. وتذكّر أنّه خاصم هذا الكاهن حين عارضه فقال له:

– ليس في السماء شيءٌ من الجلال، بل إنّها لا توحي إلى الإنسان إلّا شيئاً واحداً: هو أنّه حقير ضئيل. وعندي أنّ السماء في النهار حين تكون فارغةً تلمع فيها الشمس وحدها، خيرٌ من السماء في الليل. وإنّ السماء في الليل حين تكون محتجبة بالغيوم فلا نراها، فكأنّها غير موجودة، خير منها حين تكون صافية. لقد خُلِقَ الناس للأرض وعلى الأرض، وحين يحاول رجال الدين انتزاعهم منها يخادعون أنفسهم فكأنّهم يدعون العروس ليلة عرسه إلى أن يترك حفلة زفافه ويمضي إلى الثكنة العسكريّة.

وتذكّر أنّ الكاهن غضب حتى احمرَّ وجهه غضباً.

ورأى الأشجار في الحدائق تتعانق وتلتصق في الظلام كأنّها غُمِسَتْ في شحم أسود، والمدينة كلّها يسودها صمت قاتل، صمت لا يطاق، يكاد يدفعك دفعاً إلى أن تصرخ بملءِ فيك:

- النار!.. النار!.. الحريق!.. الحريق!...

وبيكوف يستغرق في شكواه ونجواه:

- يا رب لِمَ عذبتني؟ ولم أذنب أكثر من سواي.

وعندئذٍ تذكّر أولئك الذين عرفهم وعاملهم واستعرضهم واحداً بعد واحد. لقد كانوا جميعاً أكثر منه شرّاً، وأشدّ حرصاً وتكالباً، وأعنف حسداً، وكان موسوساً شديد التنقيب والتدقيق في معايبهم، ولذلك لم يستخلص له أصدقاء أوفياء، وعاش فريداً وحيداً، عاش ليبني له في تؤدة وصبر عشاً مكيناً يحيا فيه حياةً هادئةً وإلى جانبه امرأة صالحة وجميلة: ما أحسن أن يرى الإنسان في بيته زوجة غضة بضة ذات جمال يكسوها كما يكسو الطفل لعبته، ثمّ يرافقها إلى النزهة في أيام العيد، ثمّ يركب معها في عجلة يجرّها حصانان، ويعرض على الناس زينتها وأزياءها فوق جسمها الرخص وقوامها الناعم فتنطلق غيرة النساء من عقالها، وحسدهنّ من سجنه... ما أجمل هذا وما أحلاه... وتطلّع بعينيه المتغضّنتين إلى الأثاث الثقيل، وذكر الآمال التي علقها عليه حين اشتراه: للأشياء مغزاها، والإنسان يعيش بينها كما يعيش في حصن منيع، جَرِّدْ الغرفة مّما فيها من أثاث تصبح كأنّها تابوت كبير:

- آه! يا رب! ماذا جنيت؟

وعاد فَخُيِّلَ إليه أنّه يسمع خطوات يعقوب رائحة غادية في مستودع الأحدب، وهو ينسج بكلماته فسيفساء بدعه وهرطقته كما تنسج آلة التطريز نقوشها وزخارفها.

- ما أصلب عوده وما أشدّ تمسّكه بآرائه، وليس في هذه الصلابة ما

يزعج، وإن كانت أفكاره صبيانية، فأنا نفسي عندما كنت شاباً كنت لا أعرف ما أريد.

ومضت تأملات بيكوف في دروب وشجون: مهما يكن فليس لي إلّا وارث واحد هو يعقوب، هذا نصيبه. وجعل بعد أن اتّخذ هذا القرار، وهو شاعر أن عقله يأباه، يجهد نفسه في التماس المعاذير فلا يجد غير واحد: ولد متواضع عفيف، وهو إذا أصبح غنياً كان أكثر عقلاً وأوضح وعياً.

ولكنّه كان، إذا نسي لحظةً واحدةً أنّ يعقوب سيصبح له وارثاً، يرضى عنه ويجد فيه كلّ ما يبتغيه، ويرى ذكاءه مغايراً لذكائه: إنّه ذكاء غريب ينساب من قلب لم تدنّسه الحياة بأقذارها، وإيمان راسخ لم تزعزعه نكبات الأيام. وربّما شعر بيكوف، وهو يصغي إلى حديث ابن أخيه المعقّد أحياناً، والغامض أحياناً، بشيءٍ هو الحسد أو يقاربه، فتراه يتّخذ عامداً وجه الرجل الصارم العبوس كيما يواري ابتسامة غير إرادية تكاد تنفرد عنها أساريره.

- حسناً.. حسناً.. العصفور يزقزق، إنّه ما يزال صغيراً ذا زغب أمّا أنا فقد صَلُبَ ريشي ولست أستطيع أن أشاركه في زقزقته، ما أَهْوَنَ الأمور على هذا العفريت الصغير!

وكان آثر الأحاديث عند بيكوف، حديث يعقوب عن معلمه القديم تيتوف، وعن سكراته العرابيد، كان يضحك ويفتح شدقيه وهو يسمع قصصه فتبدو أسنانه لذهبيّة كلّها، ويغمض عينيه مسروراً ويغمغم: لقد سرّه أن يجد عدوّه مضحكاً إلى حدٍّ يستدعي الإشفاق عليه، وأن يجد عين وارثه يعقوب حادةً يقِظَةً قادرة على اكتشاف مواطن الضعف والقبح في الناس.

- أنت ملاحظ ماهر، وهذه الملاحظة نافعة، فمن الخير لك أن تعرف أيّة رِجْلٍ يعرج عليها المرء، إن كانت اليسرىٰ فاضربه علىٰ يمناه، وإن كانت اليمنىٰ فاضربه علىٰ يسراه.

ورسم يعقوب ذات يوم هذه الصورة الزيتيّة بصوته الصافي:

- إذا حلّ فصل من فصول السكر عند تيتوف دعا إليه المهندس بالتايسكي، وجعلا يشربان عشرة أيام دون انقطاع، وفي كل يوم عند المساء يرسلان الخادم إلىٰ الحديقة ليدفن فيها عشرين زجاجة من الخمر في عشرين موضعاً، علىٰ شرط أن تكون مطمورة لا يبدو منها شيء، فإذا طلع الصباح مضيا إلىٰ الحديقة، وفي يد كل منهما عصا، يبحثان عن الفطر - كما يسميانه - فيقلبان الأرض بحثاً وتنقيباً فإذا عثر أحدهما علىٰ زجاجة صاح في سرور: وجدتها... وجدتها...

ثم يمضيان بها إلىٰ عريشة الكرمة فيشربانها ثـمّ يعودان إلىٰ البحث عن زجاجة أخرىٰ من جديد.

ولكلّ نوع من أنواع الخمر عندهما اسم من أسماء الفطور، «فالنبيذ» هو «الفطر الأحمر»، و«الشمبانيا» هي «الغاريفون» و«الكونياك» هو «الفطر البرتقالي» و«العرق» هو «الفطر الإشني» ولا يزالان يبحثان عن الزجاجات سحابة نهارهما ويشربان ما يجدانه علىٰ الترتيب فيبتدئان مرّة بالعرق... ومرّة بالنبيذ... فإذا سَكِرَ تيتوف مضىٰ يمشي علىٰ قوائمه الأربع، كأنّه الملك بختنصر، وهو يغني لحناً من ألحان «الشيطان»:

أنا لم ألقَ محباً ذا حنان

أنا ملعونٌ علىٰ كلّ لسان

وبالتايسكي مكبّ على الأرض يبكي وينتحب: لأنّه لم يستطع إخراج زجاجة من الأرض بأسنانه وحدها، فلا يزال يئنّ ويصيح:

– واأسفاً على شبابي... واضياع قوتي...

ويضحك بيكوف رغم ما يثير الضحك من ألمه، ويقول سوموف في أسف ظاهر:

– الحقّ أنّ ذلك يضحك، ولكنّي أشفق مع ذلك على هؤلاء الناس، إنّهم ذوو قدرة خارقة، وموهبة ممتازة، إنّهم قادرون على تحريك الجبال الرواسيّ، ومع ذلك فهم لا يحرّكون غير إصبعين من أصابعهم. يخطئ من يظنّ أنّ الناس حريصون، فأنا أرى أنّهم لا يحرصون على العمل.

وقال بيكوف يعارض ابن أخيه رغبة في المعارضة وحدها:

– أنت شاب، لا ترى كبير أمر.

وفكّر في نفسه:

– إنّ هذا الصبي لغز مبهم، يفكّر فيما يتعلق بالأعمال تفكير المعلم الماهر. نعم: الحقّ أنّ الناس لا يرغبون في العمل، إنّهم كسالى. ولكن ما أغرب هذا الأمر. مستخدم، عامل مثلاً، يجأر بالشكوى لأنَّ معلّمه لا يعمل كما ينبغي، وهو يقول علينا أن نعمل في وجدان، ولكن يجب أن نترك الأفكار الصبيانية جانباً إذا أردنا أن يعمل الناس جميعاً في وجدان وبكلّ ما يملكون من قوّة.

وقال لابن أخيه في غضب:

– أنت ولد معقّد يا يعقوب، وهناك مسائل لا تفكّر فيها تفكيراً جدّياً.

وسكت سوموف وغضّ من نظره، وحاول أن يبسط خصلة شعره المتمرّدة فازدادت حراناً وتمرداً.

- 4 -

وفجأةً شرع التجّار يضطربون ويتحركون، وأرهقوا خيولهم رائحين غادين أيّاماً طويلة، وجعلوا يطوفون الشوارع، وهم في عجلاتهم تبدو عليهم الجلالة والمهابة، وسأل بيكوف صاحبه كيكين حين رأى ما رأى من حركة هؤلاء الذين لم يتعوّدوا مثل هذه الحركة وهذه السرعة، وهو يطلّ عليهم من النافذة:

- ما بال الناس يتخبّطون؟!

لقد تغيّر وجه الأحدب الكالح وبدا أكثر تبلّجاً وانبساطاً، وفقدت عيناه الدجاجيتان ما كان فيهما من تقلّب مرضي، بل إنّ مشيته قد زادت رسوخاً، وتلّفته أصبح أقلّ تكلّفاً وأكثر إلفة، وكأنّه حين يتحرّك يحمل بين صندوقيه شيئاً يقفز قفزاً، وقصّ الأحدب على بيكوف، وهو يغمز بعينيه في حماسة، ويرّتل كلماته ترتيلاً، ويشدّ حمّالة سراويله مرّة بعد مرّة، قصة غير معقولة، حادثاً غريباً اشتركت فيه دار البلديّة، ومكتب أصحاب الحرف، والتجار والأشراف وحتى رجال الدين.

- إنّها الحكاية عظيمة يا ايجور ايفانوفتش.

- اسمع. هل الحاكم في المدينة؟

- نعم.

- إذن ما الخبر؟

وابتسم كيكين ابتسامةً جديدةً ماكرة:

- وماذا تريد أن تعرف؟

- يا لك من أحمق.

لو كان في المدينة يعقوب لقصّ حوادثها في وضوح، ولكنّه يقضي أيّاماً في موسكو، وهو غائب منذ خمسة عشر يوماً، والمدينة تزداد حركتها وتتفاقم أمورها، وتنمو ضوضاؤها فكأنّها في أعياد الأسبوع المقدّس، وكأنّها تدوي فيها وشوشة حريق كبير.

وسأل بيكوف مرّة أخرى صحبه غاضباً:

- ما الخبر؟

- اسمع يا ايجور ايفانوفتش، إنّ الشعب يريد...

- من الشعب؟.. الفلاحون.. تكلّم ولكن لا تكن مهذاراً..

- ويريد الفلاحون كذلك..

- ما يريدون؟

- يريدون الأرض...

- لمن؟

- اسمع...

وتململ الأحدب وجعل يتلوى على كرسيه، كأنّها سرطان أُلقِيَ في ماءٍ يغلي ويفور، ويبتسم مكرهاً ويتمتم:

- الناس جميعاً يطلبون تصفية الحساب...

وفرك يديه ولمع في عينيه فرح سكران، يناقض قصّته الباكية، واختلجت رجلاه العبلتان ونقرتا الأرض تحت المنضدة واستمر يقول:

– لقد صاح الحقد الدفين على الحياة القذرة بأعلى صوته، وشَرَعَ العقل ينفض عنه غبار النوم ويصحو من خماره، واتفق الناس جميعاً على أمرٍ واحد، هو أنّهم لن يسمحوا مرّةً أخرى ببقاءِ هذه الحياة...

– أيّة حياة؟؟ أيّها الشيطان ذو الصندوقين!

– ولكنّها حياتنا هذه التي نحياها... لقد شرع الناس يبحثون في كلّ أمر شجعاناً غير خائفين، وأقسم لك أنّك لو رأيت بعضهم لخُيِّل إليك أنّهم كانوا نائمين منذ قرون، وأنّ تلك الحياة التي عاشوها ليست حياتهم أبداً، وأنّ الماضي الذي مرّ بهم لم يكن إلّا حلماً عابراً، وأنّهم الآن قد قرروا وصمموا...

والأحدب جالس وقد زوى صدره قليلاً، وأدار وجهه إلى بيكوف، وسترته البنية القصيرة تقفز فوق صندوقه، وتكشف عن كرة بيضاء في قميصه، وعن حمّالة سراويله، وسراويله تتناثر عليها بقع من الطين تبلغ ركبتيه.

وفكّر بيكوف:

– كيف قضيت حياتي مع مثل هذا الأبله التافه؟...

– نعم! إنّها حكاية يا ايجور ايفانوفتش. لقد احتلّ الناس الشوارع وأقاموا المتاريس والاستحكامات أمام دار البلديّة!

– اغرب عن وجهي.

وبقي بيكوف وحده فقال في نفسه:

- دودة حقيرة تزعجني... يجب أن يسكن بيتاً وحده، ولست في حاجة إليه ما دام يعقوب في منزلي...

وعاد يعقوب من موسكو في يوم ماطر عند المساء، ونزل إلى غرفة عمّه يشرب الشاي في سيماء رائعة، كأنّه عائد من الكنيسة بعد القدّاس، وكأنّ في نفسه شيئاً قد امتلأ حتى كاد ينفجر... وكأنّ خصلة شعره المتمردة قد ازدادت وقاحةً وانتصاباً، وكأنّ حاجبيه قد برزا في قلق، وكأنّ صوته أصبح أشدّ قيمة وتهدّجاً، بل لقد جلس على كرسيه جلسة أقلّ تواضعاً، بل لقد دفع هذا الكرسيَّ إلى المنضدة بقدمه، وأقلق هذا الموقف بيكوف وأنذره سلفاً بنكبةٍ ستحلّ به عمّا قريب، وسأله: كيف الأحوال في موسكو؟..

وبدأ ابن أخيه يتحدّث، وهو ينتزع الألفاظ ويفكّر، وكان صوته مرتفعاً ارتفاعاً غير مألوف، فكأنّما هو شاهد يؤدي شهادته في محكمة، وقد أقسم أمام القاضي: إنّه لن يقول غير الحق... مضى في حديث طويل، ولم يجب على أسئلة عمّه الغاضب، وربّما وقف عند بعض المقاطع من حديثه، كأنّه يحاول أن يتذكّر أمراً أو وكأنه يبحث عن كلمة شاردة...

وقال بيكوف في نفسه: إنّه يكذب وهو يريد أن يخيفني. وآلمه أن لا يكترث يعقوب بأسئلته، وأضحكه أن يرى الأحدب يهتز على كرسيه في صبر نافد، ويفغر فاه الضفدعي، يتحيّن الفرصة لإلقاء دلوه في الدلاء:

- كلبان شمّ كلاهما رائحة صاحبه.

وقصّ عليهما يعقوب قصصاً لا تصدّق، لقد ثارت طبقات الشعب كلّها فجأة لأمرٍ غير معروف، تطالب بتخفيف آلام الحياة، وكلّ طبقة منها

تمشي وراء هدف عيّنته لها مصالحها، والناس كلّهم كأنّهم سكارىٰ يسرع بعضهم إلىٰ حرب بعض.

وسأله بيكوف غاضباً حذراً:

– وما عسىٰ أن يحدث؟

– ستحلّ بنا الكارثة إذا لم يثر ضميرنا جميعاً، فنندم علىٰ ما كان في الماضي، ونتعاون علىٰ المستقبل. يؤسفني أن أُقلّقَ بالك، ولكنّي لا أستطيع أن أكتم عنك أنّا قادمون علىٰ ثورة مسلّحة...

وأجابه بيكوف في لهجة الواثق الحازم:

– أنت تكذب، وأين السلاح؟ أنت تكذب، بل إنّك تستثمر مرضي وعجزي عن الخروج إلىٰ الشارع، وأنت تحاول أن تقتلني خوفاً وذعراً..

وصرخ بصوت مخيف، وهو يضرب المنضدة بيده فتهتز الأقداح فوقها وتدندن، وعيناه جاحظتان:

– لست عجوزاً شمطاء، وما أظن الساعة قائمة، بل أنا لا أخاف هذه القيامة.. بل أنا لا أخاف شيئاً أبداً، وأنا المالك المطلق لثروتي ما دمت أعيش..

وسكت بيكوف حين رأىٰ ابن أخيه قد احمرَّ وجهه حتىٰ احتقن، وجعل يقدم كرسيه إلىٰ المنضدة، ويسعل سعالاً جافاً، ويقول له كأنّه يدق المسامير:

– إذن فاسمح لي أن أفسّر لك موقفي منك تفسيراً صادقاً لا ريب فيه، أنت تظنّ أنّي أعبأ بميراثك، وقد أشار كيكين إلىٰ ذلك ذات مرّة، ولكنّك مخطئٌ في هذا الظنّ، بل أنت مخدوع، وفي ظنّك هذا إهانة لي

واحتقار... لست في حاجةٍ إلى ثروتك.. بل أنـا رافـضها رفـضاً باتـاً. وأنـا مستعدٌّ أن أكتب لك صكاً رسمياً بالتخلّي عن هذه الثروة.. وسأكتبه اليـوم وأسلّمك إيّاه...

لم أسكن بيتك إلّا لأمرٍ واحد هو أنّك مريض وحيـد، وأنّـك تـشعر بالسآمة وتحسّ بالكآبة.. وأنا أعلم أنّـك خـير مـن كثير مـن أمثالـك مـن المرابين، لأنّ فيك بعض ما أحبّ من استقامة، فلقـد كنـتَ قـادراً عـلى أن تقضي على الدكتور بيكر قضاءً تاماً قانونيّاً، وعلى أن تقذف به هاوية الـشقاء والبؤس، ولكنّك لم تقض عليه، ولقد كنتَ قادراً على القضاء على الأوانس كازيميرسكي ولكنّك لم تقضِ عليهنّ، ومن هنا كان مصدر احترامـي لـك وإعجابي بك، ومن أجل هذا وحده سكنت بيتك.. أمّا الآن فقد حانَ لي أن أنصرف فالوداع..

كان يعقوب يسعل ويفحُّ كالأفعى في بِدْءِ حديثه وانتهى إلى غمغمـة خافتة لا تُسْمَع، وخنقته السعلة فنهض ومضى إلى الباب وهو يقول:

– أنا أشكر لك ما كان من معروف... ولكن يؤسفني...

وصرخ به بيكوف، وهو يـشدّ زنـاره حـول خـصره، ويـدفع طـرفي الزنار دفعاً غير ذي سبب:

– مهلاً... مهلاً... لا تحزم أمتعتك...

ولكن يعقوب سورموف كان قد غاب وراء البـاب، وعندئـذٍ صرخ بيكوف بالأحدب:

– عليك به... أمسكه...

وقفز الأحدب وتكوّر واختفى.

ودمدم بيكوف: ما هذا؟

وتطلّع إلى الباب في دهشة، وأرهف سمعه إلى الأصوات التي تختنق رويداً رويداً على السلّم.

لم يدهشه أن يرفض سوروموف ثروته، قدر ما أدهشته معرفة هذا الصبي لقصّة الدكتور بيكر والأوانس كازيميرسكي...

أمّا الدكتور فكان رجلاً أبله وقع في براثن مراب ذكي، وأمّا الآنسات كازيميرسكي فقد كِدْنَ يهدمهنّ استهتار أبيهنّ الخليع...

وقال في نفسه:

– إنّه يحترمني... ولقد ظلمته وأثرته، وهو الطفل البريء...

وصرخ وهو يستقبل سوروموف نادماً خجلاً:

– حادث عارض. ولم تتركني؟ اجلس، ثروتي لك وحدك.. تلك هي إرادتي... بل ذلك هو القانون.

وقال يعقوب وهو مايزال واقفاً معتمداً على الكرسي في صوت خافت ولكنه حازم:

– أرفض الحديث عن الميراث.

– أهكذا؟ أأنت لا تريده فعلاً؟

– كلا لست أريده... ثم إن من الممكن أن تلغى الوراثة عن قريب...

وسأله بيكوف وهو يؤرجح عقدتي زناره:

– وكيف ذلك؟... اجلس.

وأحسب بإحساس غريب، إنه مثل إحساس ذلك الشحاذ الجائع

الذي تصدّق عليه الناس بعد حرمان طويل بقطعة طيبة وكبيرة من الخبز الأبيض...

– لا تؤاخذني، فأنا مريض... ما من أحد يستطيع أن يحول بينك وبين إرثك... ذلك هو القانون...

وجلس يعقوب وهو يقول:

– هذا القانون يجب أن يُلغَى، ولسوف يُلغَى، فهو مصدر الكوارث.

وقال بيكوف يمازحه، وقد رآه يتألّم، وتطاول وجهه، واضطربت نظراته:

– هذا صحيح... ولسوف يلغى...

ثم سأله: أأنت محموم؟

– كلا، ولكنّك مخطئ حين تمزح... لقد ثار الشعب على الأغنياء ناقماً... ويقول بعض الناس: إن عليه أن يستولي على أموالهم جمعاء...

وقال بيكوف يُطَمْئِنه:

– لا تخف.. لا تخف.. لن يأخذوا مني شروى نقير...

– ولكنّي غير خائف.. بل أنا نفسي أرى هذا الرأي وأدعو إليه.

وشهق بيكوف، وغرغر صدره، ثم زفر فقذف بهواء رئتيه، وبألمه دفعة واحدة، وتحدث في صوت قوي مرتّل كأنه الخوري تيودور حين يتلو صلواته:

– الإنسان بلا مال، كالعظم بلا لحم، المال هو جسده... هو لحمه.. أفهمت؟ هو لحمه..

وضرب ببطن كفه ذراع المقعد الجلدي وعاد يقول:

- نعم هو لحمه... والإنسان لا يعيش إلا لكي يكسوه اللحم، ويشبع رغباته.. والعالم كلّه قائم على إشباع هذه الرغبات، والعمل الإنسانيُّ كلّه إنما يهدف لهذه الغاية... ومن يطلب القليل لا يساوِ الكثير...

وقال يعقوب في بسمةٍ ساخرة:

- حسناً إذن فكلّ إنسان يريد أن ينال كلّ شيء...

- وكيف ذلك؟.. ماذا يريد الناس؟ لا تؤمن بأقوالهم بل انظر إلى أعمالهم... ليس يكفينا أن نرغب ونريد، ولكن علينا أن ننتج ونكسب، وإذا كان كلّ شيءٍ كثيراً كفى الناس جميعاً ورضي الناس جميعاً...

وقال بيكوف في رفق وعطف:

- لست أبله، وأنا أفهم ما تريد، إنّك تريد أن تكون الأمور سائرة في بساطة وصفاء كما قال المسيح. نعم ن المسيح أراد إن يقسم كلّ شيء قسمةً عادلةً متساوية، ولكنه كان يعيش في عالم فقير أمّا نحن فنعيش في عالم غنيٍّ، ثم إن الناس كانوا أقلّاءَ في عهد المسيح، وكانوا فوق ذلك يريدون قليلاً من الأشياء، ولا يقدرون عليها، أمّا الآن فقد أصبحنا أكثر حرصاً وطمعاً.. وأصبحنا كثيرين وزادت حاجتنا إلى كلّ شيءٍ، إذن فواجبنا الآن أن نعمل ونجمع وندّخر.

ودُهِشَ بيكوف من آرائه هذه نفسها، كانت تتوارد إلى خاطره فجأةً، وكأنها مستقلّة عن إرادته، أو كأنها شخص أجنبي ولكنه مغرٍ لذيذ.

وحيّرته هذه الأفكار وأقلقت باله، وبدت واحدة له منها ذكيّة صحيحة مقبولة قادرة على كل ما في الحياة من تعقيد حلاً قريباً سهلاً، فعاد يردد ويصغي إلى نفسه في انتباه.

– علينا أن نبدأ بالعمل، وبجمع كل شيءٍ، وعلينا بعد ذلك أن نقوم بتوزيعه على الناس توزيعاً بالسويّة والعدل، حتى على الناس ذوي العاهات الذين ليس من ورائهم نفع، نعم حتى على هؤلاء، وهكذا لا يبقى على ظهر هذه الأرض بؤس ولا قذر، ولا ظل للآثام، وهكذا يشبع الناس جميعاً ويعيش كل فرد منهم كما يشاء ويختار، وهكذا لا يزعجك واحد منهم بحقده ولا بحسده، وهكذا يصبح كل إنسان قديساً، نعم يصبح كل إنسان قدّيساً.

ومازال بيكوف يتحدث وهو يزداد دهشة من حديثه، شاعراً أن تفكيره قادر على أن يتطور في هذا الاتجاه الجديد تطوراً ليس له نهاية، وأنه يلهمه الألفاظ الضروريّة للتعبير إلهاماً سهلاً، وخُيّل إليه أن كبّة الخيطان المتلاحمة لهذه الفكرة، مهجورة في ذهنه منذ أمدٍ بعيد، منذ الأزل، وأنها الآن قد دبّت فيها الحياة وبدأت تدور وتدور، وهي تمدّ وراءها في طريقها سلكاً قوياً لا نهاية له، سلكاً يقطع امتداده أنفاس بيكوف، فكأنه محمول في سرعة على طريق ملساءٍ مصقولةٍ، والكلمات الجديدة تجري على لسانه في سهولة فوق العادة كأنّه فكّر بها دائماً، وألقاها دائماً، وسرّه أن يحسّ أنه ذكيٌّ من نمط جديد، وأن يرى الأحدب يبتسم وهو يصغي إليه إصغاء فيه بهتة وفيه ذهول، وأن يرى يعقوب ينحني على كرسيه وينظر إليه في حنان بعيني صبيّة جميلة، كل هذا مؤثر، كل هذا كان يدفع بيكوف إلى الخشوع، وهو يحس بالقوّة الخارقة التي تربط بين الناس وتوحد بين قلوبهم، وتجعلهم إخواناً على سرر متقابلين، واغرورقت عيناه بدموع الحنان، وفجأةً خارت قواه فأكبَّ على المقعد وزمزم وهو يغمض عينيه مرهقاً تعباً:

- ومن ذا الذي يسرّه أن يكون جزاراً يذبح الناس؟! ولكنَّ الحاجة إلى العمل كبيرة جدٌّ كبيرة، وعلينا أن نسرع، فالموت يفسد كل شيء، ويهدم كل مشروع.

ونهض كيكين فقال في اهتمام:

- يجب أن تنام يا ايجور ايفانوفتش، فأنت تعبان، تعال ساعدني يا يعقوب.

وتأبطا ذراعي بيكوف، وسارا به إلى سريره، وأضجعاه في عناية، ثم انصرفا في غير ضجّة، والأحدب يلف ساقيه أمام يعقوب، ويعقوب يمشي وراء الأحدب مطرق الرأس يمدّ خصلة شعره.

- 5 -

وعاش بيكوف أياماً لذيذة، شعر أنه في عيد أو في حفلة تكريم تغمره غيمة نديّة من العناية والرعاية، يحيطه بهما كيكين ويعقوب. ولقد انهارت قواه فجاء له بممرضة عصبيّة المزاج، طويلة نحيفة كأنها قضيب، نقش الجدريُّ وجهها، وترك عينيها دون لون، ورأى بيكوف، وهو يلحظ انهيار قواه صابراً مستسلماً، من خلال ضباب إحساساته، أنَّ وجه كيكين يزداد اصفراراً وطولاً، وعينيه تزدادان قلقاً وتقلباً، وأن يعقوب قد أصبح سوداوياً أصفر حزيناً، وأنه يغيب عن البيت مرات في اليوم الواحد، وأنه حين يعود يتحدث في قليل من الحماسة، وفي كثير من الحذر.

وقال بيكوف في نفسه:

- إنهما يرعيان أمري بقياً علي، ولا يريدان إقلاق بالي.. إن نهايتي قريبة... ما في ذلك شك.

وأصبحت فكرة الموت أقلّ رهبةً، ومرارةً، وتضاءل مغزاها الشديد، ولكنه مع ذلك كان يردّد حيناً بعد حين مرغماً أو كالمرغم:

- الآن طابت لي الحياة مع يعقوب، لقد فهماني وأدركا سري، ولقد بسطت أمامهما روحي كما تُبْسَط الورقة فقرأا فيها من أنا.

ويبتسم ويفكر في وارثه.

- أوضحت له معنى الثروة وقيمة المال فأصبح الطفل قلقاً. وهو الذي كان يقول بتوزيع الثروات على الفقراء... يا للرجال...

وسأل الممرضة ذات يوم يريد أن يفهم قصص كيكين الغامضة، وأحاديث ابن أخيه المنطوية:

- ما أخبار البلد؟

وقالت المرأة:

- الثورة مستمرّة.

قالت المرأة ذلك في غير اكتراث، كأن الثورة عمل عاديٌّ من أعمال الناس، أو نوع من العربدة والسكر والتجارة، ثم تثاءبت، وهي التي تتثاءب دائماً، فتضع يدها على فمها، وترسم الصليب، كأن النوم منعقد أبداً في عينيها، وتمشي مشية القطّة.

وبدأ إطلاق الرصاص مساء السبت واستمرّ إلى صباح يوم الأحد، وكان صباحاً شديد المطر والظلمة، ودوت الطلقات الأولى من بعيد وسمع بيكوف أصواتاً كأنها نقر بطة على صفيحة من التنك، فأيقظ الممرضة وسألها:

- ما هذا؟

ومدّت المرأة رأسها كالحيّة ونظرت من خلال النافذة القاتمة:

- لا أعرف. أتريد الدواء؟

وتعدّدت الطلقات واقتربت، وقال بيكوف:

- أظنّ أنها طلقات ناريّة.. أيقظي من فوقنا..

لقد دلّته أذن الجندي القديم على نغمات الرصاص.

ومضت الممرضة تتأرجح كأنها تمشي في ريح صرصر عاتية، وتغرز شعرها تحت منديلها، وجلس بيكوف على سريره يصغي إلى الأصوات، ويصقل شعره ولحيته بيديه المرتجفتين:

- إنهم يطلقون الرصاص.. يا للكلاب... ولكن من هؤلاء؟

وهبطت الممرضة الدرج وهي تصرخ صراخاً أحمق:

- الرصاص.. الرصاص.. فوق السقف..

وقال بيكوف:

- الرصاص.. إنه في الهواء.

- كلا.. كلا..

- اخرسي، إنه تدريب عسكري، فإطلاق النار ممنوع..

- كلا.. كلا.. وحقُّ أجدادي..

وهرعت المرأة إلى النافذة ففتحتها، واكتسحت الأصوات الغرفة، وفجأة انفجرت قنبلة، فاهتزت ألواح الزجاج ودندنت، واشتعلت في نوافذ البيت المقابل أنوار ذات ألوان.

وجلست المرأة على الأرض ورسمت إشارة الصليب وهي تقول:

- حنانك يا رب.. رحمتك يا رب..

ودخل كيكين يلبس معطفاً وقبّعة، وهو يتعقف ويلتف ويمشي على رؤوس أصابعه وبدا وجهه في نور الصباح نحاسياً ميتاً.

وهتف به بيكوف:

- ماذا حدث؟ ويعقوب؟ أين يعقوب؟

- خرج.

- ومتى؟ وإلى أين؟

وخلع كيكين قبّعته وقال في صوت يكاد يخونه، وهو يفرد ذراعيه المعوجتين:

- لقد قلت له: يا ايجور ايفانوفتش، لا تتدخل في هذه القضايا، فهي لا تليق بك، لقد خدعونا.. ولكن..

- ومن الذي خدعنا؟

- خدعتنا الحكومة.. ولكن يعقوب قال لي: لا يجوز أن نتخلى عن الرفاق.. وإنها لدناءة.. إنه من مؤسسي جمعية كونونوفو.

وفهم بيكوف، وكأنما أصابته ضربة سوط، ونزل من سريره وهو يصرخ:

- ثوبي، هاتي ثوبي، قوديني إلى النافذة أيّتها المرأة...

وتطلعت المرأة إلى الشارع من النافذة وقالت:

- اصنع ما بدا لك، النار تشتعل، أمّا أنا فذاهبة إلى البيت.

ولكنها لم تذهب، بل إنها لم تتحرك من مكانها، بل إنها ركعت على ركبتيها أمام النافذة.

ودمدم كيكين وبيكوف يلبس ثوبه:

- حذار.. فقد يخترق الرصاص النافذة.

وقال بيكوف صارماً حازماً:

- كفى كفى أيها الممرض.. أيها الشريك..

واقتربت الطلقات، وسمعت صرخة طويلة:

- آه.. آ..

وأغلقت بوابات الدور في شدّة، وتردد صدى فأسين تُحطّمان الخشب، وصرخ صوت حادٌّ في غضب:

- اهربوا إلى البساتين..

ورأى بيكوف حصاناً أسود يجري في الشارع وقد رُبِطَ رجلٌ فوق سرجه، فأصبح الحصان كأنه جمل ذو سنام، وعرف من مشية الحصان أنه يعرج، ومرّت ثلاثة أشباح تلتصق بالحيطان، واحداً بعد واحد، وجرّ آخرها خشبة تضرب أحجار الرصيف وتعلق بجوانبها.

وقال بيكوف:

- اللصوص.. اللصوص..

وأحسّ بفراغ يثقل نفسه، بفراغ تضيع فيه الأصوات جميعاً، وتغرق فيه الأفكار جميعاً.. ودوت رصاصة وارتجفت الأوراق اليابسة على الأشجار، وقال بيكوف:

- شظايا قنبلة..

وسمع صوت كيكين الحيِّيُّ:

- يجب أن تبتعد عن النافذة..

ودفعه من كتفه وهو يقول:

- إذن فقد نشبت الثورة..

- نعم لقد ثار العمال يا ايجور ايفانوفتش.

- أويعقوب منهم؟

- إنه من أنصار كونونوفو...

ومد بيكوف يده من النافذة وصرخ به:

- اذهب... اذهب وهاته... يجب أن يعود حالاً. لماذا تسكت أيّها النذل... أتخفيه عني؟

وتمتم كيكين كالمذنب:

- لقد قال لك يعقوب قولاً صريحاً، ستكون الثورة مسلّحة..

- اذهب وهاته.. لو مات جعلت حياتك مستحيلة..

واصطكّت أسنان بيكوف وخُيِّل إليه أن لحيته ستسقط عما قريب، ووقف منتصباً كأنه جندي في ساحة القتال، فارع الطول مستقيم القناة، قرب البقعة الغامضة من النافذة، جاحظ العينين، مختلج الساقين، يتطاير ثوبه ويخفق، وينحدر على كتفيه.

وردّدت الممرضة:

- أنا ذاهبةٌ إلى بيتي.

وسقط بيكوف في مقعده ثقيلاً واستمرّ ينظر إلى الشارع الذي غمره ضباب الفجر.. الطلقات أصبحت أقل عدداً، وضربات الفأس أكثرَ بُعداً، وسقط شيءٌ ما على الرصيف أو أمام البوابة فحطم الألوام... وتراءت له أسلاك الهاتف أكثرَ امتداداً واضطراباً، وامتلأ الشارع سريعاً بضجّة صمّاء من ركض وصرير خشب، ودوى صوت مألوف في غضب:

- ارفعوا البوابة.. في الباحة براميل.. دحرجوها وهاتوها..

وفطن بيكوف:

- البراميل في ساحة داري..

وفي الشارع تحت نوافذه كانوا يصرخون:

- اربطوا الأسلاك بأعمدة المصابيح.. مدّوها عبر الشارع، اكسروا مصراعي الباب... رجلي... رجلي يا شيطان...

وقال بيكوف في صوت عالٍ:

- إنه صوت يعقوب.. صوت يعقوب..

لم يرغب في التفكير فيما يصنعه يعقوب، ومع ذلك فلم يكف عن الدمدمة، وصدره معتمد على حافة النافذة:

- إنه يدافع عن نفسه.. إنه يقاوم..

والممرضة تركض من زاوية إلى زاوية وتنتحب:

- يا رب.. يا رب.. الأشقياء.. اللصوص..

وصرخ بها بيكوف:

- اجلسي واخرسي وإلا سحقتك..

وتناول العصا التي يضرب بها السقف عند دعوة كيكين وهزها في وجه الممرضة متوّعداً.

وظلّت أسنانه تصطكّ، ودخلت شعرات من شاربيه فمه فصقل شاربيه وصقل لحيته، ولكنه لم يستطع سلطاناً على فكيه، وملأ نفسه صمت داخلي مخيف، وأحس بفراغ كبير عميق، رغم ما كان في الشارع من ضجة تثور حيناً بعد حين، ومن صرخات وصرير أخشاب، وطلقات نارية بعيدة..

وعند البوابة أصدر صوت من الأصوات أمراً:

- ارم الكاهن.

وأخيراً بدا الصباح، وارتسمت في الضباب أشباح واضحة.. لم

يكونوا أكثر من مئة ثائر يتكومون على الجانب الأيسر من دار بيكوف، كانوا يقطعون الطريق بأعمدة الهاتف التي يجرّونها من أسلاكها كما يجرّ السلور من شاربه.. وجاءوا من باحة المنزل المجاور بأكداسٍ من العلف المضغوط، وأخرجوا منها عجلة، وجعلوا من كل أولئك، وهم يلهثون تعباً، حصناً منيعاً.. وتطلّع الناس من وراء النوافذ يرمقون هذه الاستعدادات بعيون عمياء..

ومن بعيد دوى صوت بوق يدعو الجنود إلى الاجتماع وصرخ الصوت الواطئ:

– انتبهوا..

وسقط شيء ما على أحجار الرصيف فدوى ثم تحطّم، وقال بيكوف في صوت عالٍ يوجه كلامه إلى المرضة كأنما هي التي سألته رأيه:

– أتسمعين؟ إنهم يهدمون ويكسرون..

وجعل يرتجف من البرد، ويجذب ثوبه إلى صدره، وأطلّ من النافذة، فرأى يعقوب يركض وهو يحمل معولاً إلى البوابة ومن ورائه عشرة رجال يتسلّحون بالبنادق وبالفؤوس، ويحمل كل منهم عريش العجلة، وجعلوا جميعاً يدفعون الباب ويحطّمونه، وارتقى يعقوب كاهل هذا الباب، ثم نزل إلى الباحة وصرخ:

– ارفعوا دفّتي الباب، خذوا البراميل.

كل هذا كان كالحلم لا يُصَدَّقُ، كل هذا كان يراه بيكوف بعينيه ثم لا يصدّق عينيه.

وأيقظته من حلمه زعقات المرضة المجنونة:

- آه... اللصوص... اللصوص...

وانفتح الباب واكتسح الرجال الباحة.

وصرخ بيكوف وقد أنفق على صراخه هذا كل ما بقي له من قوّة:

- قفوا أيّها الأبالسة... قفوا... اطردهم يا يعقوب.

ورأى وجه يعقوب يتطلّع إليه مستديراً كأنه القرص وسمعه ينادي:

- خدعونا يا عماه... وهم الآن يقتلوننا...

وسمع صوت الأحدب الشاكي يصيح:

- ابتعد عن النافذة يا ايجور ايفانوفتش...

وارتفع مصراع الباب الأيمن ثم ترنح ثـم سـقط في الباحـة مـدوياً، وأمسك به بعض الرجال وجرّوه إلى الشارع، وبقي منهم من بقي يعـالجون المصراع الثاني لينتزعوه، ويدحرجون البراميل التي كانت تتدعبل ويتـدعبل بينها الأحدب الصغير.

وأمسك بيكوف وهـو يـشتم ويلعـن بأصـيص للأزهـار ورمـاه في الباحة على الناس، وسقط الأصيص بعيداً عنهم، ورآه بيكوف، ومع ذلـك فقد صرخ بالممرضة:

- هاتي أواني الأزهار... هاتي الكراسي... هـاتي كـل مـا تقـع عليـه يدك..

ورنّ في صوته تهديد جعل المرأة الخائفة تنتـصب وتـسرع في صـمت تحمل إليه الأواني، وتدفع الكراسي برجليها ويديها، وجعل بيكـوف يرمـي الناس من النافذة، بكل ما بقي فيه من عزم، ويلقي عليهم كل ما تصل إليـه يده، وهو يصرخ ويزعق ويزأر كالوحش الضاري:

يعقوب سأقتلك هذه المرّة... خذ... كيكين يا إبليس اللعين... خذ...

وأطلق واحد رصاصة فحطّمت الزجاج واقتلعت قطعة من الجصّ في السقف فسقطت، وجلست الممرضة على الأرض تصرخ وهي ساجدة، والتفت إليها بيكوف ينتهرها:

– أنت كذابة... أنت لم تموتي... هيا هاتي يا ساقطة...

وفي الوقت نفسه دوّت طلقات من النار وصاح صوت رفيع عند البوابة:

– طوّقونا... طوّقونا...

ورأى بيكوف ابن أخيه يزحف على الأرض وهو يجرّ ساقه جراً، ورأى الرجل ذا اللحية يترك العريش يسقط إلى الوراء، فيضرب برأسه الباب وتسقط قبعته، وبرز عند البوابة من قلب الضباب جنود يحنون ظهورهم، ويصوبون حرابهم ويصرخون:

– سلم... سلم...

وجعل بعضهم يطلق النار على الهاربين.

وانفجر بيكوف يضحك ضحكةً وحشيّةً مرعبة، ومدّ يديه إلى النافذة، وجعل يشير بأصابعه، ويضرب الأرض بقدميه، ويصرخ ويزعق:

– اطعنوا هذا.. هذا الذي يزحف.. اطعنوه.. مزّقوه.. والأحدب... هذا الذي يختبئ وراء البرميل... الأحدب...

وفتحت الممرضة نافذة أخرى على مصراعيها وجعلت تصيح:

– اطعنوهم... اطعنوهم... اطردوهم...

فهرس

هذا الكتاب...

«ها هي ذي الرّيح تمزّق حجب الغيوم الكثيفة، وها هو ذا شعاع الشّمس يسطع في زرقة السّماء، وها هي ذي هذه البهائم المراح تستقبلها بصرخة واحدة وهي تفتل شواربها فوق أشداقها الطّيّبة. أيُّ إنسانٍ يستطيع أن يمنع نفسه من ضم هذه الحيوانات، ذوات القائمتين، ومن تقبيلها؟ إنها حيوانات ذكيَّة فيما تعمل، ماهرة فيما تصنع، وإنها لتغرق في العمل حتى تنسى نفسها. وهل يستطيع شيءٌ في الوجود أن يقاوم هذه الطّاقة من العمل الذي بدأ، وهذه الفورة من القوّة التي تفتّحت راضية ومطمئنة؟ إنها قادرة على خلق المعجزات، قادرة على أن تَهِبَ، في ليلة واحدة، للأرض كلّها ماء يملؤها قصوراً رائعة ومدناً زاهية زاهرة تخجل منها القصور والمدن التي ورد ذكرها في الأساطير».

ومكسيم غوركي في كتابه هذا يقصّ علينا أنباء تلك الانطلاقة إلى المجد والحريَّة، وأخبار تلك الثّورة التي اشتعلت نيرانها في بلاده فنقلتها من جحيم الذُّل والجهل والفقر والمرض إلى نعيم العزة والعلم والثّروة والعافية.




9 789933 536299



للدراسات
والنشر
والتوزيع

